حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

دورية تصدر كل شهرين

السنة الثالثة عشرة / (يناير - فبراير) ٢٠١٨

64

Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary | January - February 2018

المجيب

ولو بهذه الأيدي المصدّعة،

اضرع إلى الله،

فهو مجيبُ كل متوجّع أوّاه..

وهل يرمم ذا الصدعَ سواه؟!

أقبل عليه وناجه "ربَّاه".

***

٢ حب الإنسان
فتح الله كولن

١٩ ثقافة التواصل بين الزوجين
د. عبد الحميد الداودي

00 بين الحقيقة والخرافة
د. أسامة السيد الأزهري

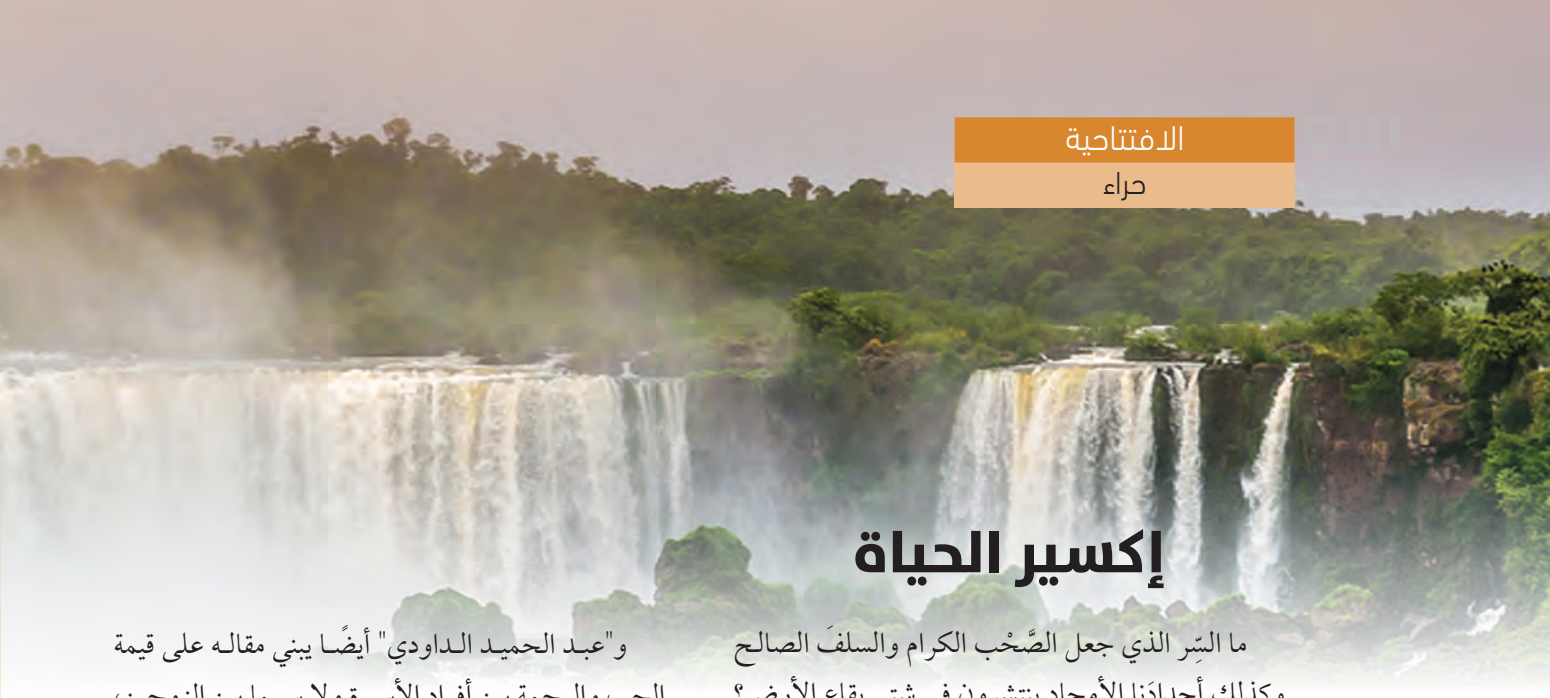

إكسير الحياة

ما السِّر الذي جعل الصَّحْب الكرام والسلفَ الصالح وكذلك أجدادَنا الأمجاد ينتشرون في شتى بقاع الأرض؟ وما السِّر الذي جعل قلوب الناس تتفتح لهم بالقبول حيثما حلُّوا وارتحلوا؟ إن السِّر بلا شك هو "الحب".. هو حبُّهم الإنسانَ.. حبُّهم الوجود واحتضانه من أجل خالق الوجود.. من هذه القيمة الإنسانية يأتي مقال الأستاذ فتح الله كولن الموسوم بـ"حب الإنسان"، راسمًا خلاله طريقًا يفوح بالحب الذي به يحيا الإنسان ويسعد وينشر السعادة في قلوب الآخرين.. ملفتًا أن الحب في معجم الإنسانية هو روحُنا، به نحس ببعضنا وبه نشعر، وأن الله لم يخلق رابطًا على وجه الأرض أقوى من الحب في وصل الناس ببعض.

قيادة المجتمعات الحقَّة ومن ثم خدمة الناس لا تكون أيضًا إلا بالحب، وهذا ما وقف عليه "فادي محمد الدحدوح" في مقاله"القيادة الخادمة" الذي ذكر فيه أن "من المبادئ الأساسية للقيادة الخادمة خدمة المجتمع، وإنها تُساهم في تأسيس ثقافة خدمة الآخرين، وتنادي بالفضائل الإنسانية التي تحتاجها المجتمعات المختلفة".

وهل يمكن أن يتحقق الحوار والسلم والتسامح والتعاون والتشارك بين الإنسانية من دون حب؟ هذا ما يتناوله "عبد العزيز الإدريسي" في مقاله "كيف نتعايش رغم اختلافنا؟". ولمقال "بركات محمد مراد" طرَفٌ من الحب، إذ يقدِّم لنا نقاطًا مهمة حول "التربية الفعالة وتأثيراتها الإيجابية" على أطفالنا مركِّزًا على أهمية حبِّهم واحترام آرائهم، يقول: "الحزم المبني على المحبة يغرس في نفوس الصغار محبة الآخرين، ويعوِّدهم الطاعة وأداء الواجبات بدوافع ذاتية وبتوازن عقلي ونفسي".

و"عبد الحميد الداودي" أيضًا يبني مقاله على قيمة الحب والرحمة بين أفراد الأسرة ولا سيما بين الزوجين، يقول: "لكي يتم تفعيل الأسرة تفعيلاً قويًّا، لا بد من تواصل قوي يستند إلى مجموعة من القيم والضوابط الناظمة لكل حياة طيبة، ويحتاج إلى حوار بنّاء وفعّال قائم على أدوات متعددة، منها ما هو حسي ومنها ما هو معنوي".

ولا بد للجالية المسلمة من تبنّي هذا الحب والتعايش مع إنسان الغرب، لتتمكن من الانفتاح الإيجابي حسب تعبير "محمد الدرداري"، يقول: "الشراكة الحضارية للأقليات المسلمة في بلاد المهجر، تعدُّ مدخلاً فاعلاً في تصحيح الصورة عن الإسلام والمسلمين، ومن خلال ذلك تَبطل جملة من الشبه التي دأب أصحاب المصالح على بثها وترويجها في الأوساط الغربية".

أما فضيلة الأستاذ الدكتور "علي جمعة" فيجعل الحب ممرًّا لحب الكون والكائنات، ففي مقاله "حب الجماد من فقه حب الحياة"، يعقد صلة وثيقة بين الحياة والجماد، ويلفت إلى أن الجماد له احترامه في تصور المسلم للوجود، ومستشهدًا على ذلك بسيرة سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ. وإذا كنتَ تحب الحياة، فلا بد من أن تعتني بصحتك، ومن أجل الاعتناء بصحتك فلا بد من حمية متوازنة صحية، أما الطريقة الصحيحة لهذه الحمية فيقدِّمها لنا "عارف أسَرْ أوغلو" في مقاله العلمي "الحمية المتوازنة".

إلى جانب مقالات قيمة أخرى تحبِّب إلى قلب القارئ العلم والأدب والثقافة والتاريخ.. والله تعالى من وراء القصد. ■

المحتويات

حب الإنسان / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
هل للخوف رائحة؟ / صابر المشرفي (علوم)	٥
قطرة من حب المصطفى ﷺ / د. إيهاب عبد السلام (شعر)	٨
القيادة الخادمة / فادي محمد الدحدوح (قضايا فكرية)	٩
بسمة الأمل / حراء (ألوان وظلال)	١١
كيف نتعايش رغم اختلافنا؟ / عبد العزيز الإدريسي (قضايا فكرية)	١٢
التربية الفعالة وتأثيراتها الإيجابية / أ.د. بركات محمد مراد (تربية)	١٥
الفَلاَح / حراء (ألوان وظلال)	١٨
ثقافة التواصل بين الزوجين / د. عبد الحميد الداودي (ثقافة وفن)	١٩
الهواء نعمة / د. محمد السقا عيد (علوم)	٢٣
الجالية المسلمة في الغرب وآليات الانفتاح الإيجابي / د. محمد الدرداري (قضايا فكرية)	٢٦
أخلاقيات الإسلام في الحرب / د. أحمد إسماعيل عبد الكريم (قضايا فكرية)	٢٩
سر الفتح / فتح الله كولن (قطوف)	٣٢
التطفيف والمطففون / د. ناصر أحمد سنه (قضايا فكرية)	٣٤
حب الجماد من فقه حب الحياة / أ.د. علي جمعة (قضايا فكرية)	٣٧
المناظرات الفكرية وإرساء دعائم ثقافة التسامح / خلف أحمد أبو زيد (تاريخ وحضارة)	٤٠
الحمية المتوازنة / عارف أسَرْ أوغلو (علوم)	٤٣
النظرية الفردوسية في العمارة الإسلامية / د. يحيى وزيري (ثقافة وفن)	٤٨
بين كهف أفلاطون وحكمة كولن / د. جيل كارول (قضايا فكرية)	٥٢
المشروع الإسلامي بين الحقيقة والخرافة / د. أسامة السيد الأزهري (قضايا فكرية)	٥٥
دورة الحضارة عند ابن خلدون / د. خالد طحطح (تاريخ وحضارة)	٥٩
العودة / عماد الشرقاوي (شعر)	٦٣

حب الإنسان

١

الحب إكسير يبعث الحياة.. بالحب يحيا الإنسان، بالحب يسعد، وبالحب ينشر السعادة في قلوب الآخرين. الحب في معجم الإنسانية هو روحُنا؛ به نحس ببعضنا وبه نشعر. لم يخلق الله رابطًا على وجه الأرض أقوى من الحب في وصل الناس ببعض. الدنيا دار خربة متهدمة الأركان والأطراف، والحب باعث الحياة ومُوقِد النُّضرة فيها. للجنّ والإنس ملوك، وللنحل والنمل ملكات، ولهؤلاء الملوك والملكات عروش يتربعون عليها عبر انتخابات أو أساليب شتى.. ولكن هنالك ملك يتربع على عروش قلوبنا دون حاجة إلى أيِّ انتخاب، ألا وهو الحب. تزداد قيمة الألسن والشفاه والأعين والآذان أو تقلّ بقدر رفعها لراية الحب، أما الحب فهو قيّم وشريف بذاته. إن القلب لم يبلغ ما بلغ إليه من السموّ والرفعة إلا بفضل الحب.. أليس القلب موطن الحب؟ عندما جاء الحب إلى الحصون المحصنة ونصب رايته أمامها مرفرفة؛ فُتِحت له الأبواب على مصاريعها دون أن تُسفَك قطرة دم. وعندما وصل فرسان المحبة إلى ديار الملوك الجبابرة، تنازلوا عن عروشهم وآثروا أن يكونوا جنودًا عاديين في كتائب هؤلاء الفرسان.

لقد نشأنا في جو تلألأت فيه أعيُنُنا بانتصارات الحب، وطربت فيه آذانُنا بدقّات طبوله المدوية، خفقت قلوبنا عند كل رفرفة من لوائه، عانقناه بحرارة وامتزجنا به بعمق، وأخيرًا ربطنا أعمارنا به على طول امتدادها، ونذرنا أرواحنا له ما حيينا. فإن حيينا فبالحب نحيا، وإن متنا فبالحب نموت. نشعر به في عمق كياننا مع

كل نفَس، نستدفئ به في البرد، ونبترد به في الحر. في غمار حروبنا تدوي دقات طبول الحب، وبأناشيده تغدو مواسم سلامنا أعيادًا سعيدة.

إن كان في هذه الدنيا البائسة -التي شاع فيها ألف صنف وصنف من الفساد- شيء لا يزال يحافظ على طهره ونقائه؛ فذلك هو الحب، وإن كان فيها حسناء لا تزال تحتفظ بجمالها وعفتها بين آلاف من الحسناوات البائسات اللواتي شحب لونهن وانطفأ بريقهن؛ فإنها المحبة. لا شيء في أي مجتمع من مجتمعات العالم أكثر واقعية وأبقى على الزمان من الحب. عندما يرتفع صوته -أحنَّ من صوت الأم تهدهد طفلها في سريره- تصمت كل الأصوات، وتسكت جميع المعازف متنازلة عن أحلى أنغامها، ومستغرقة في إنصات خاشع.

إن رحلة الخلق في هذا الوجود بدأت نتيجة اشتعال قنديل الحب. فلولا محبة الحق سبحانه للخلق، لما كانت الأقمار ولا الشموس ولا النجوم.. كل كون من الأكوان قصيدة حب والأرض قافيتها. تدوي نغمة الحب في أرجاء كتاب الطبيعة وأركان النظام الكوني الشاسع، وترفرف رايته في سماء الإنسانية عبر مناسباتها الدافئة. إن كان هناك عُملة لا تفقد قيمتها عند الناس أبدًا، فإنها الحب، لأن قيمة الحب ذاتية. فلو وُزِن الحبُّ بأنقى أنواع الذهب، فإن كفته راجحة لا محالة. قد يفقد الذهب قيمته في الأسواق، بيد أن أبواب الحب موصدة دومًا في وجه الخسارة، ولا يمكن لأي تدخّل خارجي أن يقلل من قيمته.

لم يفكر في محاربة الحب على مر التاريخ إلا أرواح متوحشة أُشرِبت في قلوبها الحقد والكراهية والعداء. وأحسب أنه لا إكسير -كذلك- يُلين الأرواح المتوحشة ويؤلّفها إلا الحب. كم من مشكلة عجزت ثروات الدنيا عن حلها فجاء الحب بمفتاحه السحري فحلّها. محال أن تُقاوِم الحبَّ أو تنافسه أي قوة في العالم. إن ملوك الذهب والفضة قد انهزموا أمام فدائيي المحبة في كل ماراثون خاضوه معهم. أجل، أتى على ملوك المادة حِينٌ من الدهر تَبخّرت فيه ثرواتهم، وكسدت تجارتهم، وخمدت نيرانهم رغم صخبهم وضجيجهم وعروضهم المبهرة وأبّهتهم البراقة، في حين ظل مِشعل الحب

الحب في معجم الإنسانية هو روحُنا؛ به نحس ببعضنا وبه نشعر.. لم يخلق الله رابطًا على وجه الأرض أقوى من الحب في وصل الناس ببعض.. الدنيا دار خربة متهدمة الأركان والأطراف، والحب باعث الحياة ومُوقِد النُّضرة فيها.

حراء

متقدًا يلج القلوب ويحيي الأرواح.

إن السعداء الذين ثنوا رُكَبهم في محراب الحب ونذروا حياتهم لنقشه ورَقشه في القلوب، قد حذفوا من معاجمهم مفردات الحقد والغيظ والكراهية والتآمر، ولم يلجؤوا إلى العداوة قط وإن دَفعوا أرواحهم مقابل ذلك، ومحال أن يلجؤوا. إن رقابهم التي انحنت بالحب رَفعت تحيةَ السلام دومًا للحب، ولم تنهض إلا أمام الحب احترامًا توقيرًا. بل عندما اندفع كل واحد من هؤلاء الأبطال كالجياد الأصيلة بالحب، انتفضت العداوة مذعورة وأخذت تنقب عن جحر لنفسها تختبئ فيه، وانفجرت الكراهية غيظًا وكمدًا، وراح الحقد يرتعد خوفًا ورعبًا، والتفّت المؤامراتُ على رقاب أصحابها التفافًا.

إن كان في الوجود إكسير استطاع أن يبطل أشد مكائد الشيطان فتكًا حتى اليوم؛ فهو الحب. لقد أطفأ الأنبياءُ نيرانَ غيظ الفراعنة والنماريد بكوثر الحب، وجمع أولياءُ الحق شتات الأرواح الضالة الثائرة المبعثرة كعقد انفرطت حباته؛ بالحب، وألّفوا بين قلوبهم في عالم من المشاعر الإنسانية النابضة بالحب. لقد كانت -ولا تزال- قوة الحب فائقة متجاوزة تبطل سحر هاروت وماروت وتطفئ نيران جهنم على الدوام. من امتلك سلاح الحب، لا يحتاج إلى سلاح آخر. إن للحب قوة تُفشِل أثر أيّ رصاصة انطلقت من فوّهتها أو قذيفة من مدفعها.

إن حب الإنسان لأخيه الإنسان، بل إن احتضانه لجميع الكائنات بشعور من الرحمة الغامرة، مرتبط في الحقيقة بمدى اكتشافه لذاته ومعرفته بها، بمدى اكتشافه لحقيقة ماهيته وإحساسه بانتمائه إلى الخالق ﷻ. فبقدر شعوره بأعماقه وإحساسه بالجواهر المكنونة في وجدانه، يعي أن سائر إخوانه من بني الإنسان

hiragate.com

يملكون مثلها في كينوناتهم، فينظر إلى كل إنسان وكل كائن بعين أخرى، ويحس بهم إحساسًا آخر، ويكنّ لهم في قلبه توقيرًا مختلفًا عما سلف، إكرامًا لانتمائهم إلى الخالق سبحانه، وتقديرًا للجواهر الكامنة في ماهياتهم. إن إجلالنا لبعضنا وثيق الصلة بمدى معرفتنا وتقديرنا للجواهر المكنوزة في ذوات كل واحد منّا.

ولا بأس من أن نوسع إطار الأثر الذي ورد في بعض الكتب على أنه بيان نبوي: "المؤمن مرآة المؤمن"، ونربطه بالمعنى الأخير فنقول: "الإنسان مرآة الإنسان". فإذا نجحنا في تبنّي هذه الرؤية، فإن كل واحد منّا سوف ينظر إلى ذوات الآخرين عبر عدسة الجواهر المكنونة في ذاته، فيعي ما يملكونه من مشاعر عميقة وأمداء فسيحة وكنوز دفينة، ويربط تلك الهبات والعطايا بصاحبها الحقيقي ﷻ، وذلك يعني أن النور والجمال والبهاء الذي يبهرنا في كل ركن من أركان الوجود، والحبَّ وما يرتبط بمعاني الحب المبثوثة في كل مكان، كلها منه وله وإليه سبحانه.

إن روحًا أحست بهذه المعاني الدقيقة تُتحِفنا بأناشيد ساحرة من لسان قلبها، وتترنم مثل جلال الدين الرومي: "تعال، هلمّ إلينا، شاركنا، نحن أهل العشق، منحنا قلوبنا للحق تعالى. هيا تعال، التحق بنا، ادلف من باب المحبة، اجلس في بيتنا معنا. أُدنُ نتحدث بلغة القلب فيما بيننا، أقبل كي تتعانق قلوبُنا ونتكلم بعيدًا عن الآذان والأعين.. تعال نتبادل بسمات كالورود دون شفاه أو أصوات.. تعال نتقابل كالأفكار دون فم أو لسان.. ها قد صرنا جميعا شيئًا واحدًا، إذن هيا لِنُناجِ بعضنا بقلوبنا دون لسان أو شفاه. ها قد تشابكت أيدينا، تعال نتحدث بلغة الحال. إن لسان الحال أعمق تعبيرًا عن سلوك القلب، فهلمّ نمسك ألسنتنا، ونتحدث بقلوبنا المرتعشة".

محال أن تجد هذا العمقَ من الإحساس والثراءَ من الحب الإنساني الذي ينبض في عروقنا لدى الفكر اليوناني واللاتيني، أو الفلسفة الإغريقية والغربية. إن التصور الإسلامي يرى أننا جميعًا تجليات متنوعة لجوهر واحد، وأن كل واحد منّا وجوه مختلفة لحقيقة واحدة. أجل، حينما يلتقي الأفراد حول معان مشتركة كالإنسانية الواحدة أو المعبود الواحد أو الرسالة الواحدة أو اللغة الواحدة أو الوطن الواحد أو الأمة الواحدة، يصبحون أعضاء في جسد واحد كما في الحديث النبوي الشريف؛ عندئذ لا تُنافِس اليدُ أختَها، ولا يعيّر اللسانُ الشفاهَ، ولا ترى العينُ عيبَ الأذن، ولا يُنازِع العقلُ القلبَ.. فإذا كانت هذه هي الحقيقة، وإذا كانت الجوارحُ المختلفة تتكامل في جسد واحد، فأيّ عقلية منحرفة تلك التي تفرّق بين تلك الجوارح؟

لماذا نحطم وحدتنا؟! ذلك الأكسير الذي يُعَدّ وسيلة بالغة الأهمية لتحويل دنيانا إلى فردوس، وانفتاح أبواب الفردوس لنا على مصاريعها، واستقبالِنا بنداء "ادخلوها بسلام آمين"؟! فإذا كان التوافق طريقًا لتوفيق الله، فلِمَ النزاع والشقاق؟ متى نجتثّ من أرواحنا أفكارًا ومشاعر تبعدنا عن بعضنا؟ متى نهرع إلى دروب الحب نعانق بعضنا؟

إن الطبائع والأمزجة -شأنها شأن الطرق المؤدية إلى الله- بعدد أنفاس الخلائق. هذا يقتنع بهذا الفكر، وذاك يهوى ذلك التفسير، هذا يسير من هذا الطريق، وذاك يعبر ذلك الجسر، هذا يرقى إلى القمم بمعراج، وذاك يصعد إليها بمعراج آخر.. كل واحد له نغمة تُحرّك عواطفه، كل واحد له أدواته الخاصة، ولكننا جميعًا نسعى ابتغاء مرضاةِ الله وتحويلِ الأرض إلى جنات فردوسية. فما دامت مساحة السعي ممتدة واسعة إلى هذا المدى، وما دامت الطرق المؤدية إلى الغاية بهذه الوفرة، فلِمَ هذا التزاحم؟ لا سيما وأن الذئاب ينتهزون نزاعاتنا وخصوماتنا ضدنا!

أختم بكلمات بديعة لأحد شعرائنا الأفذاذ إذ يقول:

القوسُ إلى السهم،
والشابُّ إلى الشيخِ،
والأنثى إلى الذكرِ،
مفتقر يا صاحِ،
ألا ترى ألا تعي؟
أجزاءُ الكون برمّتها،
تحتاج بعضَها البعضِ.. (الشاعر العثماني بَصِيري) ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة "سيزنتي" التركية، العدد:٢٤٨ (سبتمبر ١٩٩٩). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

hiragate.com

صابر المشرفي*

هل للخوف رائحة؟

يتعرض بعضنا بين الحين والآخر لمواقف خطرة قد تهدد بدنه أو حياته، فتتسارع ضربات قلبه فوق المعدل المعتاد، وتزداد حدقة عينيه اتساعًا، ويشعر بضيق في التنفس نتيجة زيادة استهلاك الجسم للأكسجين، كما ترتفع حرارة الجسم ويزداد البدن تعرّقًا، مما يؤدي إلى نقص السوائل في الجسم، فيشعر الإنسان بجفافٍ في الفم والحلق، كما يصاحب ذلك كله تغيُّر في لون البشرة إلى اللون الأصفر ثم الأبيض الباهت، لنقص التروية الدمويّة للبشرة.

ما سبق ذكره كان أعراضًا لشعور واحد يسمى "الخوف"، وقد شاع بين الناس أنه على الإنسان أن يتجلد في مثل هذه المواقف،

الخوف الموضوعي المحمود، هو الذي يحرك الإنسان نحو البحث عن الكمال والتكامل لتحقيق غايته النبيلة، كالخوف من الله تعالى الذي يدفعه إلى التسامي، وخوف البشر من الهلاك يدفعهم إلى تحقيق ثقافة السّلم والتعايش.

خاصة إذا كان في مواجهة حيوان مفترس أو أفاعي وحشرات سامة كالعقارب، أو غير سامة كالنحل، لما تملكه من قدرات على شم رائحة الخوف الذي يعتري الإنسان في هذه الحالة، ومن ثم تقرر مهاجمته من عدمها.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا، هل للخوف رائحة؟ وإذا كان له رائحة فكيف تتكون؟ ومن يملك القدرة على الإحساس بها؟ وإذا كان الإنسان يصاب بكل هذه الأعراض جراء شعور الخوف، فلماذا خلق الله الخوف أصلاً؟

كل هذه الأسئلة سوف نجيب عنها بعد أن نتعرف على مدلول الخوف عند اللغويين وعلماء النفس وعلماء التزكية، ونتبين بعض أنواعه.

الخوف في اللغة

الخوف في اللغة، هو انفعالٌ في النفس يَحدُثُ لتوقُّع ما يرد من المكروه أو يفوت من المحبوب، وله مرادفات كثيرة من أشهرها التوجس، الخشية، الذعر، الرهبة، الروع، الرعب، الفرَق، الفزع، الهلع، الوجَل، الاتقاء، الاحتراس، والجبن.

وهذه المرادفات وإن كان بينها قاسم مشترك من جهة المعنى، بيد أنها تحمل بعض الفروق الدلالية التي يقتضيها هذا السياق أو ذاك، كما يدلك كثرتها وتنوعها على عناية العربية بهذا الشعور. وعند التأمل في أشهر معاني أضداد هذا اللفظ يمكنك أن تحكم الحكم نفسه، فمن أشهر أضداده الأمن، الأمان، الاطمئنان، الطمأنينة، الراحة، الرضى، السكينة، السلام، الهدوء، والشجاعة، كما يمكنك أن تلمح مدى حاجة الشعوب إلى إقرار هذه المعاني في العالم كله في وقتنا الحاضر.

الخوف عند علماء النفس

أما علماء النفس فقد عرفوا الخوف بأنه شعور يصيب عقل الإنسان المترقب لحدوث أمر سلبي له من خطر معين، وقد يكون هذا الشعور حقيقيًّا أو مجرد خيال ووهم لا وجود له.

ويرجع سبب الخوف إلى عدة أسباب، صنفها علماء النفس إلى قسمين:

١- اضطرابات هرمونية داخلية يسببها وجود خطر محدق بالفعل بالشخص الخائف.

٢- نواتج محض نفسية وسلوكية يُعاني منها الأفراد الذين يترقبون حدوث شيء ما لهم بالمجمل.

وبناء على هذا التصنيف قاموا بتقسيم الخوف ذاته إلى قسمين:

أ- خوف موضوعي منطقي: وذلك يكون عند وجود سبب أو خطر حقيقي يرعب الإنسان ويدعوه للشعور بالخوف، كخوف السقوط من مكان شاهق، أو التعرض للأذى أو الموت من قبل شخص أو حيوان مفترس.

ب- خوف غير مبرر أو غير منطقي: ويسمى أيضًا الرهاب أو الفوبيا. وهذا النوع في أغلب حالاته مرضي مزمن، لأنه خوف متواصل من مواقف أو نشاطات معينة عند حدوثها أو مجرد التفكير فيها أو أجسام معينة أو أشخاص عند رؤيتها أو التفكير فيها. ويكون المريض غالبًا مدركًا تمامًا بأن الخوف الذي يصيبه غير منطقي ،ولكنه لا يستطيع التخلص منه بدون الخضوع للعلاج النفسي لدى طبيب متخصص.

الخوف عند علماء التزكية

أما علماء التزكية فيذكرون نوعًا آخر من الخوف وهو "الخوف من الله تعالى"، ويعرفونه بأنه "تألم النفس خشية من عقاب الله من جراء عصيانه ومخالفته"، ويعتبرونه من خصائص الأولياء، وسمات المتقين، والباعث المحفّز على الاستقامة والصلاح، والوازع القوي عن الشرور والآثام.. لذلك أوْلَته الشريعة عناية فائقة، وأثنت على ذويه ثناء عاطرًا مشرفًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨)، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ

hiragate.com

الْمَأْوَى﴾(النازعات: ٤٠-٤١).

والآن نعود إلى إجابة الأسئلة التي طرحناها في بداية المقال:

هل للخوف رائحة؟ وإذا كان له رائحة فكيف تتكون؟

ربما يكون من غير المنطقي أن نتساءل هذا السؤال أصلاً، لأن الخوف شعور معنوي يشعر به الإنسان عند مواجهة الأخطار، والمشاعر ليست لها روائح في حد ذاتها، لكن قد يبدو معقولاً إذا قلنا إن شعور الخوف يصاحبه عدد من الاستجابات المشمومة والمرئية والمسموعة، التي يدركها الحيوان المهاجم بالممارسة، فيقرر على أثرها مهاجمة الإنسان أو الحيوان الآخر الخائف، فإذا كان الحيوان لا يستطيع أن يشم الخوف ذاته فيمكنه أن يشم المادة التي تفوح رائحتها من الشخص أو الحيوان الخائف.

أما كيف تتكون هذه الرائحة؟ فقد تحدثنا عن أعراض تصاحب الشخص الخائف تحدث عن طريق الجهاز العصبي الذاتي، تتضمن عددًا من التغيرات الفسيولوجية بما في ذلك زيادة نشاط الغدة التي تفرز العرق، وكذلك هرمون الأدرينالين الذي تفرزه الغدة الكظرية التي تقع أعلى الكلية، استجابة لأي نوع من أنواع الانفعال كالخوف والقلق، وله رائحة مميزة لأنه يصاحبها إفراز أحماض دهنية تظهر في إفرازات عرقية خاصة تسمى بـ"عَرَق الخوف".. وهذا ما أكدت عليه الباحثة "جالا مدحت أبو زيد" الباحثة بمعهد البحوث الطبية بجامعة الإسكندرية، ويرجح أن هذه الروائح يمكن للحيوانات تعقبها بحاسة شم قوية، سواء أتم إفراز الرائحة كآلية للدفاع أو كاستجابة للتوتر، لذا فالحيوانات لا تشتم الخوف فعليًا، وإنما تلاحظ تغيرًا عامًا في السلوك.

أما من يملك القدرة على الإحساس بها فمن الواضح أن هذه الاستجابات المشمومة تحتاج إلى حاسة شم قوية، لذلك تأتي الكلاب من الحيوانات، والنحل من الحشرات، في مقدمة من يميز هذه الروائح، لما يملكه كل منهما من حاسة شم قوية خصه الخالق العظيم بها.. فالكلب يفوق الإنسان في حاسة الشم حوالي أربعين مرة، والنحل يستطيع التفرقة بين مئات الروائح المختلفة، وأيضًا معرفة ما إذا كانت الزهرة تحمل لقاحًا أو رحيقًا

الكلاب تملك قدرة فائقة على شم رائحة الخوف الذي يعتري الإنسان عند مواجهته، ومن ثم تقرر مهاجمته من عدمه. كما أن الكلاب تفوق الإنسان في حاسة الشم بأربعين مرة.

من خلال شم رائحتها على بعد أمتار، ثم تأتي بعدها بقية الحيوانات المفترسة، والزواحف السامة في الترتيب.

أما الحكمة من خلق هذا الشعور لدى الإنسان أو غيره من الكائنات، فهو خدمة غريزة البقاء والقدرة على تجنب الأخطار حفاظًا على الحياة، فمن خلاله يستطيع الإنسان أن يهرب أو يختبئ أو يواجه هذا الخطر حماية لنفسه، فسبحان من جعل لكل شيء حكمته.

والخوف الموضوعي المنطقي المحمود، هو الذي يحرك الإنسان نحو التجويد والبحث عن الكمال والتكامل؛ لتحقيق غايته النبيلة، كالخوف من الله تعالى الذي يدفع الإنسان إلى التسامي في الطاعات والبعد عن المنهيات، وخوف البشر من الهلاك يدفعهم إلى تحقيق ثقافة السِّلم والتعايش والتضافر لدفع الشرور والمهلكات التي يمكن أن تدمر الحياة على هذا الكوكب بأكمله. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

د. إيهاب عبد السلام*

قطرة من حب المصطفى ﷺ

أَمَّا الهَلَاكُ بِحُبِّهِ فنَجَاةْ ... وَالموْتُ فِي حِضْنِ الحَبِيبِ حَيَاةْ

مَا ذَاقَ قَلْبِي قَطْرَةً مِنْ حُبِّهِ ... إِلَّا وَرَدَّدَ قَائِــلاً: اللهْ

للحُبِّ مَعْنًى لا يَبُوحُ بِسِرِّهِ ... هَيْهَاتَ يُدْرِكُ عَاشِقٌ مَعْنَاهْ

تِلْكَ المحَبَّةُ أَيْنَعَتْ فِي مُهْجَتِي ... كَشُجَيْرَةٍ نَبَتَتْ بِقَلْبٍ فَلَاةْ

الحُبُّ مِثْلُ وُضُوئِنَا فِي طُهْرِهِ ... وَالوَصْلُ إِذْ تَتْلُو الوُضُوءَ صَلَاةْ

إِنَّ المحَبَّةَ غَايَتِي وَوَسِيلَتِي ... وَغَرَامُنَا يَا نَفْسُ مَا أَزْكَاهْ

فَدَعِي الغَرَامَ عَلَى الطَّرِيقِ يَقُودُنَا ... وَأَنَا وَأَنْتِ نَسِيرُ خَلْفَ خُطَاهْ

واللهِ مَا افْتَقَدَ الغَرَامَ مُسَافِرٌ ... إِلَّا وَضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ وتَاهْ

وَتَلَمَّسِي يَا نَفْسُ بَيْنَ جَوَانِحِي ... نُورَ الحَبِيبِ فَقَدْ أَطَلَّ سَنَاهْ

يَنْسَى الطَّرِيقُ العَابِرِينَ إِذَا مَضَوا ... وَطَرِيقُهُ هَيْهَاتَ أَنْ يَنْسَاهْ

إِنْ غَابَ عَنْ عَيْنِي فَقَلْبِي حَاضِرٌ ... قَلْبِي يُحِبُّ مُحَمَّدًا وَيَرَاهْ

قُلْ مَا تَشَاءُ عَنِ المحَبَّةِ وَالهَوَى ... مَا ذَاقَ حُبًّا مَنْ أَحَبَّ سِوَاهْ

نَهْرُ المحَبَّةِ فِي الوَرَى مُتَغَيِّرٌ ... فَيَغِيضُ نَبْعٌ أَوْ تَجِفُّ قَنَاةْ

لَكِنَّ حُبَّكَ يَا مُحَمَّدُ خَالِدٌ ... لا تَسْتَوِي الأَنْهَارُ وَالأَمْوَاهْ

بِكَ يَبْدَأُ التَّارِيخُ مَوْلِدَ نُورِهِ ... فأَزَحْتَ كُلَّ ضَلَالِهِ وَعَمَاهْ

بَدَأَتْ بِوَجْهِ مُحَمَّدٍ أَنْوَارُهُ ... وَاليَوْمَ قَدْ بَلَغَ الضِّيَاءُ مَدَاهْ

(*) شاعر مصري.

فادي محمد الدحدوح*

مع نهايات القرن المنصرم وبدايات الألفية الجديدة، بزغ توجه جديد في المنظمات الاقتصادية العالمية والمؤسسات التربوية والدينية والتعليمية والأكاديمية والأمنية، يدعو إلى التخلي عن المفهوم التقليدي للقيادة المستند إلى الهرمية والوصاية وسلطة المركز، وتبنّي أنماط ونماذج قيادية جديدة تشجع العمل الفريقي التعاوني، والمشاركة في صنع القرار، والاهتمام بالمرؤوسين وتعزيز نموُّهم.. كل ذلك في إطار أخلاقي إنساني يتزامن فيه الارتقاء بأداء المنظمة ونوعية إنتاجها والاعتناء بالعامل والاهتمام به.

من المبادئ الأساسية للقيادة الخادمة؛ خدمة المجتمع، إنها تُساهم في تأسيس ثقافة خدمة الآخرين، وتنادي بالفضائل الإنسانية التي تحتاجها المجتمعات المختلفة.

من هنا لم يكن مستغربًا أن يبدأ نمط جديد في القيادة يطلق عليه "القيادة الخادمة"؛ يدعو إلى إيلاء الموظفين العناية المتزايدة وتلبية حاجاتهم بوصفها الأولوية الأولى للمنظمة، بطرح نفسه نمطًا قياديًّا فعّالاً ونظرية معاصرة مشروعة في القيادة المنظمية.

إن القيادة الخادمة تُشجِّع الأفراد على إحداث توازن في حياتهم بين ممارسة القيادة وخدمة الآخرين، فهي تحث القادة على أن أولويتهم الأولى هي خدمة أتباعهم، وفي الوقت نفسه تشجع الأتباع على استثمار الفرص الموقفية لممارسة القيادة، إذ إن الغاية من القيادة الخادمة هي تحسين حياة الأفراد أنفسهم، ثم رفع مستوى منظماتهم من بعدهم.

مفهوم وطبيعة القيادة الخادمة

القيادة الخادمة (Servant Leadership) تقوم على فكرة ذكية وهي أن القيادة عندما تقود الأفراد، تخدمهم لكي يكونوا أكثر استعدادًا لكي يقوموا هم أنفسهم بخدمة الآخرين. وإن مما يكمل تلك الفكرة حقًّا، هو أن الأفراد الذين يجب استخدامهم أو تحفيزهم وتشجيعهم لإنجاح القيادة الخادمة أن يكونوا من نمط الأفراد الذين يميلون للخدمة أولاً، أي لديهم الاستعداد عند خدمتهم أن يكونوا خدمًا للآخرين.

والقادة في ذلك هم القادة الخادمون الذين يُقَدِّمون النموذج في الخدمة أولاً، ويقودون لكي يخدموا العاملين، ويكونون محفِّزين ومشجِّعين على أن يقوم العاملين بخدمة الآخرين.

للوهلة الأولى يبدو الأمر غريبًا حينما تقول "إن القائد خادم"، لكن الحقيقة الموضوعية التي تتجلى من خلال ذلك، تجعل هذا المفهوم أكثر تجسيدًا لحقيقة القيادة ودورها في تحقيق أهداف المنظمات الإنسانية العاملة، إن الأمريكيين والأوربيين يقولون: "إن المسؤولية الأولى للقائد هي توضيح الأهداف للعاملين معه، وثم في النهاية تقديم الشكر على الأداء المُنجز، وهو بين هاتين المُهمَّتين يعمل معهم كخادم لهم".

إن هذا المفهوم الشائع الاستخدام في الفكر الأمريكي والأوروبي للقائد كخادم، عادة ما نجد له مرادفًا للاستخدام في تاريخ الفكر الإسلامي قديمًا، فإن المَثَل يقول "سيد القوم خادمهم"، وهذا ما يتوافق مع الفكر الإداري المعاصر، لكن العقول التي لا ترقى إلى هذا المستوى من التفكير، حاولت أن تطمس معالم هذا المَثَل السليم من خلال القول "صغير القوم خادمهم"، وهذا الفهم القاصر لا يتوافق مع حقيقة القيادة وتأكيدها بأن أكثر القادة قُدرة على تحقيق إنجاز الأهداف التي يُرجى بلوغها هم أكثرهم انسجامًا مع مفهوم "كبير القوم خادمهم" لا صغيرهم.

إن المفهوم العلمي المعاصر لكلمة القائد يُركز على أن القيادة تمثل القدرة أو القابلية التي يستطيع من خلالها الفرد توجيه جهود الآخرين نحو تحقيق الهدف المُراد إنجازه بكفاءة وفاعلية.

أبعاد القيادة الخادمة

- **المهارات المفاهيمية:** حيازة المعرفة عن المنظمة والمهام الموكلة له بحيث يكون في وضع يُمكّن القائد من تقديم المساعدة والدعم الفعّال، وتسهيل مهام الآخرين خصوصًا المرؤوسين المباشرين.
- **التمكين:** تشجيع وتقديم التسهيلات للآخرين وخصوصًا المرؤوسين المباشرين، من خلال تحديد وحل المشاكل، فضلاً عن تحديد متى وكيف يتم إتمام مهام العمل على أكمل وجه.
- **مساعدة المرؤوسين على التطور والنجاح:** تقديم الاهتمام الحقيقي لنمو المرؤوسين من خلال توفير الدعم والتوجيه اللازم.
- **الاهتمام بالمرؤوسين أولاً:** استخدام الإجراءات والعبارات الواضحة للآخرين، تلبية احتياجاتهم من

hiragate.com

العمل واعتبارها أولوية (المشرفين الذين يمارسون هذا المبدأ غالبًا ما يقومون بإعطاء أولوية قصوى لمشاكل المرؤوسين الذين يواجهونها في أداء المهام المُسندة لهم).

فوائد القيادة الخادمة

أ– تطوير المنظمة: نقاط القوة الرئيسة لنظرية القيادة الخادمة هي مساهمتها في التطوير التنظيمي، يتجه القائد الخادم من نمط القيادة التقليدي الذي يُركز على الهيمنة على المرؤوسين وتلقينهم ما يجب القيام به إلى نمط القيادة الخادمة، حيث يخوّلهم بالعمل ويلهمهم. وهذا الإلهام يؤدي إلى جهود جماعية، وناتج العمل يكون أكثر وأعظم من الجهود الفردية.

ب– تطوير الموظفين: القيادة الخادمة لا تُلقي بأهداف المنظمة على عاتق الموظفين، بل على العكس، تبذل القيادة الجهد والوقت لمساعدة الأتباع على فهم نقاط القوة والضعف الخاصة بهم. القائد الخادم يساعد مرؤوسيه على الوصول لقمة طاقاتهم الجسدية والفكرية، وبذلك يصل المرؤوسون إلى التوازن في حياتهم، وتساعد المنظمات على تطوير رأس المال البشري والمحافظة عليه.

جـ– خدمة المجتمع: تُعدُّ خدمة المجتمع من المبادئ الأساسية الأولى للقيادة الخادمة، فالقيادة الخادمة تُساهم في تأسيس ثقافة خدمة الآخرين، سواء داخل المنظمة أو خارجها، وتبرُز أهمية القيادة الخادمة على مستوى المجتمع من كونها تنادي بالفضائل الإنسانية التي تحتاجها المجتمعات المختلفة. فمع ظهور القيادة الخادمة نشهد ازدهار الحركة الاجتماعية، كما سيكون لدى المجتمع قيم مُثلى تصب في الصالح العام، ونموذج أكثر قوة من خلال ما تفرزه القيادة الخادمة من مبادئ الإنصاف والعدل. كما أن القيادة الخادمة تقوم بإنجاز المهام التي تلبي الحاجات الإنسانية الأصلية في المجتمع بالنمو التربوي الواعي. ■

(*) كاتب وباحث فلسطيني.

بسمة الأمل

نورًا لِيشرِقْ أفقُك دوما،
بحب الإله ليخفِقْ فؤادك،
وتهفو إليك كلُّ القلوب،
وغيظًا يموتُ كل حسود.

***

عبد العزيز الإدريسي*

كيف نتعايش رغم اختلافنا؟

منذ مدة ليست بالقصيرة تصاعدت وتيرة الصراعات الدينية والمذهبية والعرقية والقومية والطائفية في العالم، وشكلت هذه الصراعات ميادين للقتل والعنف والتعصب والغلو والإلغاء والتصفية الجسدية والتدمير، في مصادمة واضحة وصريحة لرسالةِ وتعاليم أغلب الأديان.

وتعتبر الجغرافيا العربية والإسلامية أكثر المناطق احتضانًا لهذه الأحداث والصراعات، رغم ما تنطوي عليه مرجعياتُها الفكرية والعلمية والسياسية من دعوة للحوار والسلم والتسامح والتعاون والتشارك. والسؤال الذي يفرض نفسه بقوة: كيف نعيش ونحن مختلفون؟ وكيف نتعايش مع الآخر؟

والإجابة على هذا السؤال تقتضي البحث في البنى المعرفية والمرجعيات الفكرية والأطر المرجعية لأي مجتمع، من أجل ضمان التعامل البيداغوجي مع الاختلاف الإنساني، وضمان العيش المشترك بين بني البشر، بغض النظر عن اللون أو الجنس أو الدين أو العرق. والقرآن الكريم بما احتواه من نظرية حوارية تواصلية بين الناس كل الناس، قد أسس للعيش المشترك ضمانًا للأمن الروحي والحرية الفكرية.

مفهوم الحوار

ورد مفهوم الحوار بمبناه ومعناه ومغزاه من بداية القرآن إلى نهايته، حيث أكد على معنى المشاركة في الحديث والتفاعل في التواصل، الذي يجري بين طرفين أو أكثر، ويفترض أن الهدف منه السير معًا في سبيل الفهم والإفهام والإقناع والاقتناع والعقل والتعقل والعلم والتعلم، والبحث الصادق عن نقاط التلاقي والتقارب من أجل التعايش والتعاون، ويمكن أن نمثل لهذا المعنى بمفتتح سورة المجادلة، قال الله سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(المجادلة:١)؛ فهذه الآية تؤكد بأن الحوار البنّاء منهج أصيل في حل المشكلات، وآلية بيداغوجية في التربية، فبالرجوع إلى أسباب نزول الآية الكريمة، يتبين أن أسرة أوس بن الصامت وزوجه خولة بنت ثعلبة، قد وقعت في مشكلة "الظهار"، فلم تجد الزوجة بدًا من اللجوء إلى الرسول ﷺ لتعرض مشكلتها في حالة نفسية منهارة ومعنويات محطمة، دل على ذلك شكواها وجدالها بمنطوق الآية، فنقلها النبي ﷺ من حال الشكوى والجدال إلى الحوار الهادئ البناء: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾(المجادلة:١).

في السياق ذاته نستحضر الحوار الأنموذج لإبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۞ يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۞ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا

إن منطلق أيّ حوار إنساني ناجح وناجع هو قراءة الذات أولاً، ثم قراءة الآخر قراءة علمية موضوعية تستصحب البعد الرباني في النشأة والخلق والمصير.

إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۞ قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۞ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾(مريم:٤١-٤٩)؛ حيث يستعرض القرآن الكريم في هذا المشهد الحواري المكتنز منظومة من القيم التواصلية التي تؤطر الإنسان بأخيه الإنسان بغض النظر عن الدين أو العرق أو الجنس أو اللون أو السن، حتى وإن تعرض صاحبه للعدوان أو السب أو الإقصاء أو التهديد.. فهو راسخ في موقفه الإنساني؛ لأن الحوار مبدأ وليس خيارًا، "وبناء على هذا الإدراك فإن الحوار اليوم قد تجاوز بمراحل كونه مجرد اختيار، إلى صيرانه ضرورة، ولا سيما أن البشرية اليوم قد أصبحت أفعل وأقدر في مجالات التدمير منها في العصور التي مضت"[1].

المقولات التأسيسية للحوار في القرآن

المقولة الأولى "اقرأ" وهي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق١-٤). يؤكد الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي انطلاقًا من هذه الآيات، على "الغائية التي ترفض فكرة عبثية الكون أو صدفيته أو لهو الخلق"؛ فالفاروقي -رحمه الله- يؤكد على أن مفهوم "الرب" هو نواة الخبرة الدينية[2]، كما يؤكد على مركزية الإنسان في فهم مراد الله وبناء تصوره المعرفي والعقدي وعطائه الحضاري. وعليه، فإن منطلق أيّ حوار إنساني ناجح وناجع هو قراءة الذات أولاً، ثم قراءة الآخر قراءة علمية موضوعية تستصحب البعد الرباني في النشأة والخلق والمصير.

المقولة الثانية النموذج التعارفي، قال تعالى: ﴿يَا

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣)، يقول فريد الأنصاري -رحمه الله- في بيان مدلول هذه الآية العظيمة: "فهذا النداء الرباني العظيم، إعلام للبشرية جمعاء أنها من طينة واحدة وأنها خلقة واحدة وأنها جنس واحد، ذلك أنه تعالى قد خلق الناس جميعًا من نفس واحدة، وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء، وكل ما تناسل عنهما من ذكر وأنثى، ثم جعلهم شعوبا وقبائل (...) فجميع الناس في الشرف -بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام- سواء، وإنما يتفاضلون بالمقامات الدينية؛ من منازل الصلاح والتقوى، والأتقى هو الأعرف بالله والأعلم به تعالى مقامًا وخشية (...)، وقوله تعالى "لِتَعَارَفُوا"، أيْ ليحصل التعارف العمراني فيما بينكم من أجل التعاون على البر والتقوى، وبناء الحضارة الإنسانية على عبادة الله وتوحيده، ومن أجل التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ حقوق الله والحقوق العامة والخاصة"[٣].

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون؛ ألوهية الله للجميع وخلقهم من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته وهو لواء التقوى في ظل الله، وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيّا بشتى الأزياء وتسمى بشتى الأسماء وكلها جاهلية عارية من الإسلام، قال رسول الله ﷺ: "كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان" (رواه الترمذي)، وقال عليه الصلاة والسلام عن العصبية الجاهلية: "دعوها فإنها منتنة" (رواه البخاري)، وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي المجتمع الإنساني العالمي.

المقولة الثالثة: في سورة الأنبياء يختتم الله تعالى مسيرة الرسل الذين ذكرهم بالاسم -وعددهم ثمانية عشر رسولاً- بهذا المشهد الإنساني الرفيع: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١٠٥-١٠٧). لقد استخلف الله آدم عليه السلام في الأرض لعمارتها وإصلاحها وتنميتها وتحويرها، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها، واستغلال الثروات الظاهرة والمخبوءة، والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم الله.. ولقد وضع الله للبشر منهجًا كاملاً متكاملاً للعمل على وفقه في هذه الأرض، منهجًا يقوم على الإيمان والعمل الصالح. وفي الرسالة الأخيرة للبشر فصل هذا المنهج، وشرع له القوانين التي تقيمه وتحرسه وتكفل التناسق والتوازن بين خطواته.

في هذا المنهج ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها والانتفاع بطاقاتها هو وحده المقصود، ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان، ليبلغ الإنسان كماله المقدر له في هذه الحياة، فلا ينتكس حيوانًا في وسط الحضارة المادية الزاهرة، ولا يهبط إلى الدرك بإنسانيته وهو يرتفع إلى الأوج في استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة.

إن الحوار بهذه المنطلقات، أضحى ضرورة بشرية وحاجة اجتماعية وسمة حضارية. ويبقى السؤال: كيف السبيل إلى تعميم هذه المقاربة الحوارية الوظيفية في واقع الناس اليوم؟[٤]. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

الهوامش

(١) الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي، للدكتور أحمد عبادي، ص:٢٩٣، دار النيل للطباعة والنشر ٢٠١٣م، القاهرة.

(٢) التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، لإسماعيل راجي الفاروقي، ص:٥٥.

(٣) مجالس القرآن مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقي إلى البلاغ، للدكتور فريد الأنصاري، الجزء الأول، ص:٣٨٨.

(٤) الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهاجي مع الوحي، للدكتور أحمد عبادي، دار النيل للطباعة والنشر ٢٠١٣م، القاهرة.

hiragate.com

أ.د. بركات محمد مراد*

التربية الفعالة وتأثيراتها الإيجابية

من المسلَّمات التربوية التي باتت بديهية، أن نمو الطفل نموًّا سليمًا وتَكيُّفه الاجتماعي السليم، يتوقف على درجة الوفاق بين الوالدين، وتوحد أهدافهما في تدبر شؤون الطفل التربوية والنفسية والاجتماعية. وإن الاتصال بين الوالدين والطفل، الهادف إلى تحسين درجة وعي الطفل وتوسيع مداركه حيال سلوكه، يعتبر من أهم الأمور على الإطلاق، ومثل هذا الاتصال يتطلب من الطرفين (الوالدين والطفل) درجة مقبولة من الحوار والتحدث والإنصات والاحترام.

فالطفل بحاجة مستمرة إلى اتصال واضح مع أحد الوالدين، وإلى اقتناع مطلق بأن هناك توافقًا وانسجامًا حيال ما يتحدث فيه معهما عن مشكلاته وتصرفاته ورغباته واهتماماته.. ولذلك على الوالدين رسم خطة موحدة لما يرغبان أن يكون عليه سلوك الطفل وتصرفاته؛ وذلك يكون بتشجيع الطفل على الإسهام في وضع قواعد السلوك الخاصة به، خاصة

مـع تقدمـه في مراحل الوعـي والنمو. فمـن خلال هذه المشـاركة يحسُّ الطفـل بضـرورةِ احترامِ ما تـم الاتفاق عليه، لأنه أسهم في صنـع القرار.

إن النظام الذي يضعه الوالدان ليتبعه الطفل، هو ضبط معايير السلوك والالتزام، وعندما يطبَّق هذا النظام بحبٍّ، سـرعان مـا يؤهـل الأبنـاء ليتأقلمـوا مـع العالـم المحيط بالأسـرة. والنظـام هنـا لا يعنـي فقـط تقويم السـلوك، بل يجب أن يُفهم أيضًا أنه وسيلة للسعادة الأسرية.

احترام الطفل

إن حبَّنـا لصغارنـا يجـب أن يكـون ممتزجًا بل ومسـبوقًا بالاحتـرام، ومشـمولاً بفهـم كامل لعقلياتهم، ومسـتوعبًا لمشاعرهم وأحاسيسهم.. فالطفل شخصية قائمة بذاتها، لها مشاعرها وآراؤها وتصوراتها. لا بد -إذن- من فهم هذه الشخصية وسبر أغوارها؛ لمعرفة كيفية التعامل معها باحترامٍ وتقديرٍ وفقًا لطبيعتها ونموها الذهني والنفسي.

إن احترام الطفل هـو الاسـتماع إلى أقوالـه، والتعرف علـى آرائـه ومناقشـته فيهـا مهمـا كانـت بسـيطة، لأن ذلـك يُدرِّب الطفـل علـى الحـوار والتفكيـر والتحليـل، وبالتالي يجعلـه قـادرًا علـى بنـاء رأي مسـتقل، ومتقبّـلاً لأفكار الآخرين. واحترام الطفل يتطلب كذلك فهم ما يصدر عنه مـن إيمـاءات وإشـارات -وهـي عـادة صيحـات وتأوهات وترنيمات- وتحليلها لمعرفة مغزاها ودوافعها سلبية كانت أم إيجابية، ومن ثم التفاعل معها بالاقتراب العاطفي والنفسي منـه، وبالحـوار الحميمـي الـذي يشـجعه علـى التواصـل.

ولذلـك ينبغـي حـذف كلمـة "لا" -قدر الإمـكان- من قامـوس مفـردات التعامل مـع الأبناء الصغار إلا بعد تبرير أسباب استخدامها، وإلا فإنهم سيتصرفون دون الرجوع إلى آبائهم أو مشورتهم. فإذا كان طلب الابن ممكنًا ولا يُسبب إرهاقًا لأسـرته، فما المانـع من إشـباع رغباته طالما تحقق منفعة له، أو تسـاعده في تكوين شـخصيته بشـكل سـوي!

ومـن جهـة ثانيـة، يجب احتـرام ما يُقطـع للطفل من وعود، ولا يجوز وعده بشيء ثم مخالفته على اعتبار أن ذاكرتـه ضعيفـة، أو لا يأبـه للأمـر كثيـرًا ولا يتأثر به. كما يجب احترام ذوقه وتدريبه على الاختيار، وبذلك يرتقي ذوقـه ويتدرب علـى التصرف والمقارنة، والاعتماد على الذات في اتخاذ القرار بعد الاستئناس برأي الآخرين.

وظائف الأبوين

الأب -كمـا يـراه الابـن- هو نظام دفاعـي جاهز للعمل، وهـذا الدفـاع يختلف كثيرًا عـن دفاع الأم؛ فالأب يدافـع بمهاجمـة الآخريـن وقـت الخطر حمايـة لأبنائه، ويمكن أن نسـميه دفـاع "الحضـن" أو "الـذود عـن"، بينما يمكن تسـمية مـا تصنعـه الأم في موقـف مماثـل دفـاع "الهرب بـ"، وكلا الشـكلين لازم، غيـر أن صـورة الأب فـي هـذا الخصـوص تصنـع نوعًـا مـن الأمـان لـدى الطفـل. إذن للأب علاقة وثيقة بإرساء حدود السلوكيات عند أطفاله، وعن طريقه يتعلم الطفل أول مفاهيم الحدود.

ولـلأب دور حيـوي بالـغ الأهميـة، فـالأب أقـرب ما يكـون مـن مفهـوم الصحـة النفسـية؛ حيـث يقـف كحاجز للتحـدي فـي وجه أبنائه، من اسـتطاع أن يتجاوزه مخترقًا حـدود ومسـافات وقيـود هـذا الأب كاسـرًا إيـاه داخلَـه، اسـتطاع أن يمـر بمرحلـة نمـو بعـد أخـرى. أيْ إن الأب هـو المحـرّض علـى النمـو تكامليًا سـواء بوجـوده القوي المتحـدي أو بوجوده الضعيف السـامح بالحرية. وأعتقد أن بداخل كل مبدع علاقة خاصة بالأب اسـتطاع أن يعبر حاجـز الأب فيهـا داخلـه. أمـا عـن علاقـة الأب بالمرض فهـي علاقـة غير مباشـرة، فعندما يغيـب الأب بالموت أو بالمـرض النفسـي أو بالسـفر، يحـاول أحـد أفراد الأسـرة القيـام بمهامـه أو أخـذ دوره وغالبًـا تكـون الأم، ولأنهـا غيـر مهيـأة للقيام بأدوار ذُكرويَّة، ترتبك أو تبالـغ في هذا الدور، ومحاولة إيجاد علاقة بين غياب الأب خاصة وهو على قيد الحياة وبين الابن المريض تثبت مصداقيتها كل حين ربما أكثر من غياب الأب بالموت الفعلي.

ويـرى الدكتـور أحمـد ضبيـع اختصاصـي الطـب النفسـي في دراسـة له، أن مرحلة التأليه والتقديس سـمة مرحلة الطفولة بما تحويه من رؤية الأب كقوة لا نهائية، وإذا ما استمرت هذه المرحلة لما بعد الطفولة، فيتحول الأمر إلى حالة يمكن تسميتها بـ"التوقف في النمو".

ثم تأتي بدايات الرؤية الموضوعية.. وفي هذه المرحلة تبـدأ رؤيـة بعـض النقائـص أو اكتشـاف عدم قـدرة الأب على كل شيء، وقد يؤدي كسر هذا الموقف القدسي إلى ربكـة الابـن أو بدايات البصيرة أو توصل للمرحلة التالية وهـي ثنائيـة الوجدان، وفيها يظهر شـعوران متضادان في

hiragate.com

hiragate.com

نفس الآن كالحب والكره، وهذه الربكة أشد من ربكة المرحلة السابقة، وخلاصًا من هذين الشعورين يتملص الابن من ضغوط الوجود الأبوي داخله وخارجه فيدخل المرحلة التالية، مرحلة الانفصال والعدوان فحين يبغي الابن التملص والانفصال يبدأ باتهام الأب بالنقائض ربما أكثر مما ينبغي تبريرًا للانفصال؛ "أنا انفصل عنه لأنه سيء"، وهي محاولة استقلالية ولكنها تبريرية غير موضوعية كمن يلجأ إلى بلد مجاور ويسب بلده الأم.

• **مأزق المسؤولية**: هنا مختارًا انفصل الابن نفسيًّا. ويكتشف الابن لا موضوعيته في حكمه السابق، ويتحير إذا أصبح مختارًا مسؤولاً عن أفعاله.

• **التروّي**: هنا يتوقف الابن نسبيًّا لالتقاط أنفاسه وهي مرحلة من الهدوء النسبي يتم فيها استيعاب كل هذه المراحل، فيكتشف لا موضوعيته وعدوانه وعدم نضج أحكامه السابقة ورؤيته.. فيحاول العودة ثانيًا إلى رحاب الأب لكن مع خبرة كل هذه المراحل، أي يعود من موقف مختلف برؤية مختلفة وهذه اختراقة نموية، وقد تتكرر كل هذه المراحل نفسها بالضبط مرة ثانية، معربة عن الدوران في حلقة مفرغة لا نمو فيها، وقد تتكرر مضافًا إليها خبرة المرحلة الأولى.

• **تقدير الذات**: ولذلك علينا أن نجعل أطفالنا يكبرون في نظر أنفسهم وفي نظرنا ونظر الآخرين وأمام أقرانهم، ولكن دون محاباة أو إلغاء لأهمية الآخرين أو الحط من قدرهم؛ فقط من أجل أن نظهر تفوق أبنائنا ونرفع من شأنهم، فمثل هذا السلوك يُحدث نتائج عكسية بصحتهم النفسية، وبجانب ذلك يجب ألا نفرض رجولتنا وإراداتنا على أطفالنا في الوقت الذي نفشل فيه عن مواجهة المجتمع، فينعكس ذلك عليهم وكأننا نثأر منهم، وفي ذات المنحى لا يجب على الأمهات ممارسة القسوة والتعذيب على أبنائهن كرد فعل لمعاملة أزواجهن القاسية لهن.

وما إن يكبر الطفل فإن دور الأب يتحول إلى تقديم النصح والمشورة بعيدًا عن الإكراه والإجبار، ولا يرفع واجب طاعته سيفًا مسلطًا على رقبة ابنه، وعليه ألا يدفعه إلى العصيان بالتعنت والتسلط، فَيَصِلا إلى مرحلة من عدم التواصل الروحي والنفسي. والقرآن الكريم علمنا

إن احترام آراء الأطفال لا يتنافى مع مبدأ الحزم في التربية، فالحزم المبني على المحبة يغرس في نفوس الصغار محبة الآخرين، ويعّودهم الطاعة وأداء الواجبات بدوافع ذاتية وبتوازن عقلي ونفسي.

كيفية التعامل مع أطفالنا على أساس من التحاور وبيان حقائق الأمور؛ حيث علمنا حسن تربية الأبناء واحترام أقوالهم وآرائهم والإصغاء إلى أحلامهم كما جاء في قصة يوسف عليه السلام وحلمه الذي رآه في المنام وقصِّه على أبيه يعقوب عليهما السلام.

وعمومًا فإن احترام آراء الأطفال لا يتنافى مع مبدأ الحزم في التربية، فالحزم المبني على المحبة يغرس في نفوس الصغار محبة الآخرين، ويعوّدهم الطاعة وأداء الواجبات بدوافع ذاتية وبتوازن عقلي ونفسي. واحترام عقول الأطفال وأفكارهم تتجلى فيما نعرض عليهم من وسائل الفن والأدب، فلا نستخف بعقولهم وقدرتهم على الفهم، لا نقدم لهم مواد سطحية أو مبتذلة باعتبارها "كوميديا" تستهدف تسليتهم وإثارة مشاعر الفرح في دواخلهم، وإذا صنعنا هذا، فيجب أن يكون مرتبطًا بقيم وأفكار تبعث على التفكير وتبني منهج النقد والتحليل، لنكوّن لديهم رؤية عقلية في النظر إلى كل الأمور.

ولا ننسى عملية الإنصات إلى أطفالنا، فالإنصات الحقيقي هو أداة شديدة القيمة والفائدة لفهم مشاعر الطفل، ولهذا يتوجب على الأبوين أن يوفرا لأولادهم الإطار أو الجلسة التي تسمح لهم بالفضفضة، وبالتعبير عن اهتماماتهم وهمومهم، وطرح تساؤلاتهم مهما كانت صغيرة أو كبيرة، ولو استطاع الوالد أن يكسب ثقة طفله وهو بعد في صغره ومراحله الأولى، فإن هذا يجعل من التواصل أمرًا سهلاً في المستقبل.

• **بناء الشخصية**: عند توجيه الطفل يجب أن تؤخذ الأمور بالتدرج، وبمرور الوقت يصبح من الملائم أن يُمنح الأطفال قدرًا مناسبًا من الحرية ومساحة من اتخاذ القرار الحر فيما يخص أمورهم الشخصية، لأن إحساس الطفل بذاتيته، على درجة عالية من الأهمية؛ إذ إنه يؤدي ليس فقط إلى كسب حبهم ومودتهم، ولكنه يؤدي أيضًا

hiragate.com

إلى الاحترام المتبادل. والتدرج في إعطاء الحق في الاختيار والقرار يجب أن يسير بالتوازي مع تحميلهم بعض المسؤوليات.

كل من الاستقلالية والمسؤولية مرهون بدرجة النضج وبالقدرات النفسية أو البدنية، إذا تأكدت هذه الأمور في حياة الطفل الناشئ، فإنه سوف يشعر بالفخر والزهو لإنجازاته وقدرته على تنظيم اليسير من أموره، وينطبق على هذا العنصر التربوي المثل الصيني الذي يقول "لا تعط ابنك سمكة ولكن علمه كيف يصطادها".

ولا ننسى ضرورة دعم أطفالنا، فاعتزاز الطفل بذاته وبقيمته الشخصية شيء بالغ الأهمية، لذلك على الوالد أن يكافئه ويشجعه، وعليه أن يحاول باستمرار أن يكون في متناوله بحيث يستطيع الطفل أن يجد أباه كلما احتاج إليه، وهناك من خبرة الآباء المجربين بعض الخطوط العامة والتي يسجلها الدكتور ماجد موريس في بحثه "خبرات تربوية" وهي:

- كلما سمحت الأمور دعم قرار أبنائك.
- أظهر اهتمامًا صادقًا بالبرامج المدرسية وشجع الأنشطة غير الدراسية، اهتم بهواياتهم ومواهبهم، اسمح أو حتى احرص على أن تغطي لوحاتهم الفنية البسيطة جدران البيت، حاول أن تقضي أوقاتًا وافرة في متابعتهم ومشاهدة مبارياتهم.
- لا تسفّه الطفل أبدًا ولا تحرجه إطلاقًا، لا تكن شديد النقد لما ينجزه، انقل إليه إحساسك بالرضا وحاول أن تشعره بأنه بذل مجهودًا، أعطه الثقة لأنك إن لم تعطه أنت الثقة فلن يستطيع أي فرد آخر أن يعطيها له.

ولذلك ينصحنا الباحث في دراسته، أن ننمو مع الأبناء، فالأبوة ليست عملاً سهلاً بسيطًا، ففي بعض الأحيان تختلط الأمور وتتسم بعدم وضوح الرؤية، ولكن في الوقت نفسه يؤكد الآباء أن الأبوة تضفي على الشخص شعورًا عميقًا بالنشوة والمتعة. وعندما يراجع الآباء حياتهم، يجدون أن أبناءهم يشقون الطوق ويجدون لأنفسهم في المجتمع مكانًا ويستَقِلّون في وقت سريع جدًّا، ولهذا فمن المحبب أن يدّخر الأب لنفسه وقتًا مع أبنائه لأنهم سوف يتركون البيت سريعًا. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

الفَلاَح

إذا لم تكن مُلكا لروحك،
فما جدوى الكتب؟
وما جدوى أن تغمر بها الفضاءات،
وهي هباءً فقط تمنحك؟
فهيّا التَهِم كل أوراقها،
وانقشْ بقلبك أفكارَها.

***

د. عبد الحميد الداودي*

ثقافة التواصل بين الزوجين

من الأمور الأساسية التي يستحسن الحديث عنها بشكل مستمر ومتجدد، أمر يتعلق بالتواصل بين الزوجين، هذا التفاعل الإيجابي الناتج عن رغبة صادقة بين الطرفين في صلة أحدهما بالآخر والاتصال بوجدانه ومشاعره لإنشاء برنامج مشترك وأهداف موحدة. ولكي يتم تفعيل الأسرة تفعيلاً قويًّا، لا بد من تواصل قوي يستند إلى مجموعة من القيم والضوابط، الناظمة لكل حياة طيبة، ويحتاج إلى حوار بنّاء وفعّال قائم على أدوات متعددة، منها ما هو حسي ومنها ما هو معنوي.

الكلمة وأثرها في التواصل

إن التواصل بين الزوجين يبدأ بالكلمة، فالكلمة هي منطلق التواصل بين الزوجين، ومن

ثم وجها معًا إلى العناية المركزة بكل الألفاظ المتبادلة. ولكن المشكلة أننا في أُسَرنا لا نحرص على الكلمة، ولا نقدِّر تبعاتها ومقتضياتها بحكم الألفة، ألفنا بعضنا البعض ومن ثم قد نطلق الكلمة أو العبارة، ولا نعير لهذا الأمر اهتمامًا كبيرًا كما نفعل عادة عندما نختار عباراتنا وكلماتنا بكل دقة وعناية، ونستحضر أن لهذه الكلمات والعبارات تبعات قد تكون لنا أو علينا.

الأصل أن الإنسان يجب أن يكون ذكيًا في اختيار كلماته سواء كان مع أسرته أو خارجها، لأن الكلمة قد يكون وراءها خير كثير وقد تكون سببًا في دمار أسرة. رب كلمة رفعت صاحبها مقامًا عاليًا عند زوجته، ورب كلمة صدرت من الزوجة رفعت مكانتها عند زوجها مكانًا عاليًا والعكس كذلك صحيح.

كم من كلمة قد لا يلتفت لها الزوجان، يهوي بها أحدهما في نار الأزمة وقاع المشاكل بشكل خطير، وإنما الطلاق كلمة، وإنما السباب كلمة، وإنما الشتم كلمة، مما يدعو إلى الحرص على اختيار الكلمات والعبارات بكل عناية. فالإنسان مسؤول عن كل ما يتلفظ به، فكل ما يلفظ به لديه رقيب عتيد. وعندما يحرص الزوجان على اختيار كلماتهما بكل عناية ودقة، يبينان أن كل واحد يعتبر الآخر وينظر إليه على أنه موجود، ويستحق هذا الاختيار والجهد الذي يبذله كلاهما في هذا السياق، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾(الإسراء:٥٣). إن الحرص على الأحسنية في الكلمة والعبارة، ينشئ تواصلاً قويًا متينًا بين مختلف الأطراف وخاصة طرفا التواصل الأساسي، الزوجان.

إن الشيطان ينزغ بين الزوجين ويستغل بعض الكلمات، ويحولها إلى ألغام يفجرها مباشرة أو يوفر لها ما يفجرها بعد حين، وعندما يدرك الشيطان أن هذه الكلمات الجارحة غير كافية، يُحرّض الزوجان على إضافة كلمات أخرى أكثر جرحًا وأكثر إيلامًا؛ حتى يتم تفجير العلاقة بين الزوجين، وتدميرها تدميرًا كليًا أو جزئيًا.

إن الشيطان يوظف الكلمات غير المُفكَّرِ فيها التي ينطق بها صاحبها قبل أن يزنها بميزان العدل والحكمة، ذلك أن لسان العاقل وراءه عقل يسدده، ولسان الأحمق عقله وراء لسانه لا ينضبط بعقله، مما يورثه الندم بعد حين. ومن الناس من تجرحه الكلمة جرحًا بليغًا يصعب نسيانه، وقد سمعت أن بعض الزوجات تلقت كلمة جارحة أليمة من زوجها في أول ليلة من ليالي لقائهما، ولكن بقيت الكلمة تخدش في نفس هذه الزوجة تؤلمها كلما تذكرت تلك اللحظة.

إن التواصل يبدأ من الكلمة، فهي رسول التواصل بين الزوجين، والكلمة التي تختار بعناية تساهم في بناء العلاقات وتجسيدها. وكم من أناس تأنس بالجلوس معهم بفضل كلماتهم التي يختارونها بعناية وبدقة وبحكمة وبعلم، وهناك آخرون تكره لقاءهم وتستعجل فراقهم لأن كلماتهم فظة غليظة، وقد قال الله رب العالمين لسيد الخلق أجمعين ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران:١٥٩).

اقتران المحبة بالرحمة

إن من أهم القضايا التي تؤسس لحياة زوجية جيدة ما يتعلق بالمودة والمحبة القائمة بين الزوجين. الحب بين الزوجين أمر في غاية الأهمية، ويستدعي التفاكر والتذاكر، ويتطلب تقويته بشكل مستمر، ويستحق الرعاية والصيانة لما فيه من بركات وثمرات هائلة على مستوى المتحابين؛ أولاً على مستوى ما ينشأ عن اللقاء بينهما من ذرية صالحة طيبة تتنفس جو المحبة القائمة في هذا البيت الجميل المبني على المحبة.

ولقد كان رسول الله ﷺ يحدث عن خديجة ﵂ ويقول إنه قد "رزق حبها"، ولم يكن يرى بأسًا بالتصريح بذلك، بل إنه يعلّمنا نحن المسلمين كيف يجب أن نضع هذه الكلمة المقدسة (الحب) في إطارها الصحيح، وكيف يجب أن نوفر لها إطارها السليم. وكان الصحابة ﵃ يتحدثون عن عائشة ﵂ ويقولون عنها حبيبة رسول الله ﷺ.

هذا الحب القائم بين الزوجين يؤسس له منذ الانطلاقة الأولى. فإن الكثير مما ينشأ من الحب الحقيقي بين رجل

hiragate.com

وامرأة، إنما بدأ من اللحظات الأولى التي يرغب فيها رجل بالاقتران بامرأة ما، ولذلك ندبت إليه الشريعة وحضت على النظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها: "انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما"، هذه النظرات الأولى من الخاطب لمخطوبته، ينبني عليها زمان طويل من الألفة والمحبة والاستمرار في هذه المحبة. فالله خلق الناس وجعلهم أنواعًا وأصنافًا في أذواقهم واختياراتهم، وللناس فيما يعشقون مذاهب، ومن ثم كانت النظرة أداة تعبير عن مختلف الرغبات والميولات، إنها النظرة المتبادلة بين رجل وامرأة على أساس الرغبة الصادقة في بناء أسرة رائعة، إنها أول خطوة في نشوء محبة تغرس جذورها من ينبوع القيم المشتركة؛ قيم الصدق والوفاء و العطاء والبذل والالتزام، وتحمل المسؤولية والتعاون على البر والتقوى. تنتعش هذه القيم بين عقلين، وقلبين، وجسمين، وروحين، ونفسين، حتى يصير هذان القلبان وهذان الجسمان وهذان الروحان وهاتان النفسيتان؛ جسمًا واحدًا ونفسًا واحدة وروحًا واحدة وقلبًا واحدًا وعقلاً واحدًا.

قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾(البقرة:١٨٧)، فنلاحظ أن كلمة "اللباس" هنا، حملت مجموعة من الوظائف والدلالات والأنوار والإضاءات والواجبات والمقتضيات.. إن من معاني اللباس أن يستر صاحبه ويحميه، ومن معانيه أن يجمل صاحبه وأن يزينه حتى يكون كل واحد من الزوجين يحس بأن الآخر لباس له. ولقد كان رسول الله ﷺ يتزين لأصحابه، ويتزين لزواره، وكان يأمر الناس بأن يتزينوا لزوجاتهم، وكان ابن عباس حبر هذه الأمة يقول: "إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي". فلباس التقوى لباس يقوم بهذا الدور الجميل. فإذن، عندما تكون المرأة لباسًا لزوجها وعندما يكون الزوج لباسًا لزوجته، إن ذلك يحمل مقتضيات ووظائف ودلالات، ومن ثم يتحول الزوجان مع الحب الذي نشأ بينهما وتعمق مع الزمن، يتحولان إلى جسم واحد.

يقول بعض الناس، إن هذا الحب يكون في البداية قويًّا ثم يصير ضعيفًا مع الزمن ومع كثرة الأولاد، ولكن المتأمل يلاحظ أن هناك فرقًا واضحًا بين الإعجاب والحب؛ الإعجاب ينشأ عندما يلتقي الإنسان مع حدث جديد، مع بضاعة جديدة، مع إنسان جديد، قد يعجب به إعجابًا معينًا فينقص هذا الإعجاب مع مرور الزمن، أما المحبة الصادقة القوية الحقيقية، فلها اتجاه واحد؛ اتجاه أن تتعمق وأن تترسخ أكثر فأكثر بين الزوجين. ولذلك هناك كثير من المعجبين، وقليل من المحبين الصادقين في محبتهم في أسرهم الذين تراهم يزدادون محبة، ما زادتهم المحن إلا تعميقًا لهذا الحب، وكان هذا الحب بين الزوجين خير معين للتغلب على هذه المعاناة.

إن المطلوب هو تعميق الحب بين الزوجين، فلماذا لا نبدع فنونًا من القول والصور لإشاعة هذه الثقافة الجميلة البانية، ابتغاء الاقتداء بأسعد زوجين في الدنيا محمد ﷺ وخديجة ثم عائشة ﷺ؟

لكي يتم تفعيل الأسرة تفعيلاً قويًّا، لا بد من تواصل قوي يستند إلى مجموعة من القيم والضوابط الناظمة لكل حياة طيبة، ويحتاج إلى حوار بنّاء وفعّال قائم على أدوات متعددة، منها ما هو حسي ومنها ما هو معنوي.

الحب بين الزوجين

عندما يتأسس الحب على بنيان قوي وسليم، أول من يستفيد منه الزوجان مع بعضهما البعض، لأن الحب يجعل المتحابين ينجذبان إلى بعضهما البعض، ويأويان إلى بعضهما البعض، ويبحث أحدهما عن الآخر، عن روحه وقلبه وعقله وسكينته.

ومن ثم رأينا البلاغ القرآني ينص على السكينة، هذا السكون الهادئ القوي العميق، إنما استقر بين الزوجين على قاعدة متينة هي قاعدة المحبة المتبادلة. والطرف الثاني الذي يستفيد من هذه المحبة الراسخة، هم الأولاد، بعد أن يشاء الله رزق هذين الزوجين ذرية صالحة؛ ذلك لأن الأولاد عندما يتنفسون المحبة داخل الأسرة، وعندما يلاحظون تجلياتها بإحساسهم المرهف الطيب، عندما يلاحظون هذا الحب الناشئ بين أبويهم، عندئذ ينشأ فيهم مصدر مهم للطاقة؛ طاقة الإنسان الفعال الإيجابي المتوازن الحر الأبي.

تَخيَّلْ أن طفلاً ينشأ في أسرة كل ما يراه في محيطها

hiragate.com

وكل ما يسمعه؛ ألفاظ وكلمات ومواقف وحالات تكشف له كراهية دفينة تسود بين أبويه وحقدًا متبادلاً، هذا الطفل إما أن يرفض أبويه كليهما ويبحث له عن نموذج آخر يجد فيه الرحمة والمحبة المفقودة في أسرته، وإما أن يصير جزءًا من سمفونية الحقد المهيمنة، ويتربى عنده هذا المرض الخطير ويرى أن هذا أمر طبيعي، ومن ثم يتطبع به أو ينحاز إلى جانب من جوانب صناع الحقد والكراهية داخل الأسرة، إما إلى أبيه أو أمه. وهنا تبرز أجواء مشحونة بالعقد الكثيرة التي تنمو سرطانيًا في أسرة ملؤها الضغينة وانعدام المحبة.. هذه الآثار المدمرة على مستوى الأجيال، يكمن ملاحظتها من خلال كثرة الجرائم والانحرافات في العديد من البيئات الفاقدة لهذه المحبة والرحمة المتبادلة بين الزوجين.

يكبر الطفل وهو يبحث عن سعادة متوهمة لدى أصدقاء سيئين، أو في بضائع مخدرة مسكنة لآلامه، ورأينا حالات من الانحراف والتمرد ضد المجتمع وقيمه، وضد الناس أجمعين يمكن تفسيرها بفقدان المحبة داخل الأسرة.

يفقد الشاب هذه المحبة فيتمرد ضد المجتمع كله وضد أسرته تبعًا، ومن ثم يمكن لنا تعليل وجود أباطرة المخدرات أو صناع الجرائم الفظيعة بالخلل في هذا السياق، ابحثوا وفتشوا، وراء كل مروج للجرائم المنظمة، وراء كل أباطرة المخدرات، وراء المستبدين وكل المنحرفين، فتشوا عن ضياع الحب بين الزوجين هذا إذا وجد زوجان متفاهمان، وإلا فإن الكثير من هؤلاء المنحرفين إنما يتربون بعيدًا تمامًا عن الأم والأب.

إذن، هذا الحب الذي سماه الله تعالى المودة، والمشفوع بالرحمة، هذا الحب إنما يفيد منه الجيل الذي ينشأ قويًا منيعًا، فالمناعة تُكتسب من خلال الحب بين الزوجين. ولقد استطاعت أُسر عديدة أن تنشئ أناسًا أقوياء بفعل هذه المحبة رغم النقص في كثير من الحاجيات المادية، حيث تم تعويض هذا النقص المادي -إلى حد ما- عن طريق المحبة الداخلية التي أنشأت شبابًا لا يستسلم للظروف الصعبة أو الفقر والحرمان، بل أفلح في الانتقال من قدر الفقر إلى قدر الغنى، ومن قدر الحرمان إلى قدر التمتع بنعم الله تعالى الواسعة.. وفعلاً أصبحت أزماته ومحنه مشاريع لصياغة إنسان ممتاز، التحم بالمجتمع، وعرف ألم الفقر والحرمان فأنشأ بدوره جيلاً جديدًا يتَّعظ من هذه المعاناة، ليصبح بركة على بلده وعلى أمته وعلى الإنسانية جمعاء.

إن الحب الراسخ بين الزوجين يحميهما من المعصية، ذلك أن الخيانة الزوجية كاشف لنقص المحبة أو انعدامها في بعض الأحيان. إن هذه الخيانة تصدر عمن ينسى أن هناك من يحبه ويضحي من أجله. كيف يمكن لمحب أن يجرح حبيبه، أو أن يقبر اتجاهاته الطيبة في المشاعر.

إن هذا المرء عندما يحب الآخر، يتذكر هذا الحب ومن ثم يبتعد عن كل ما يجرح محبوبه وعن كل ما يؤذيه ويؤلمه. فالحب الحقيقي يقود إلى تكاتف وتآزر وتعاون جميع أفراد الأسرة، لتصبح هذه المؤسسة الصغيرة الناشئة القائمة على طرفين، نواة تتجمع حولها مجموعة من الأسر، وتتشكل من خلال ذلك كله فئة اجتماعية متميزة، تتفاعل إيجابيًا ومؤسسة الرحم والجوار والصهر والقرابة.

إن القرآن عندما يتحدث عن المودة يقرنها بالرحمة، ذلك أن الحب الصادق يؤدي إلى الرحمة الحقيقية المتبادلة.. هذه المرأة وهذا الرجل ربما قد تتحول أحوالهما، وقد يبتلى الجمال بفعل حادث من الأحداث، وقد يصير الغني إلى فقير، والموسع عليه إلى مضيق عليه.. هنا تأتي الرحمة ضرورية من ضروريات الحياة، وهي شرط أساس لظهور ثمار المحبة الحقيقية التي قرنت بالرحمة: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(الروم:٢١).

وقول سيدنا عمر ﷺ "وهل تقام البيوت على الحب فقط" لا يعني الحب الحقيقي، فإنه حب لا بد من وجوده، بل ربما يقصد به الإعجاب في اللحظات الأولى التي كان فيها الزوج قويًا وشابًا، وأصبح الآن هرمًا وشيخًا، وكانت المرأة شابة مغرية للزواج، وأصبحت الآن كبيرة في السن قد ذبل جمالها.. هنا لا بد من تأسيس منطق الرحمة، الذي يكون نتيجة طبيعية للمحبة القائمة بين الزوجين، وهي المودة. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

hiragate.com

د. محمد السقا عيد*

الهواء نعمة

أنعم الله علينا كثيرة، وآلاؤه غزيرة، وأياديه جليلة تستدعي العقول للتأمل والانتباه.. ومن أجلّ نعم الله على البشر، نعمة الهواء الذي يحيط بنا، تلك النعمة التي لم يُملكها الله تعالى لأحد، ولم يحجزها ويمنعها أحدًا من الأحياء، بل ساوى بين الجميع في وجوه الانتفاع بها.. فمن الذي يقدر أن يمنع عن الإنسان النَفَس الداخل، أو يقف ويسدّ عليه طريق النَفَس الخارج؟

لقد وفَّر الخالق ﷻ الهواء بكمّيات هائلة تكفي حاجة الكائنات، ويسَّر مكانه على وجه الأرض دون أن

تتعب أو تتكلف في جمعه أو نقله أو تخزينه، أو تخشى من فقدانه أو ضياعه.

عندما يتأمل الإنسان في الطير المسخر بين السماء والأرض، يذهل حقًّا من القدرة التي تمسكه في الهواء! أجل، إن تلك القدرة، جعلت الهواء يحمل الطيور، ويسَّر وحبَّب إليها الطيران والتحليق في السماء، وبدون الهواء ما كان لطائر أن يطير.. فالطيور تدفع كميات الهواء اللازمة لتسبح عليها، ولم يقتصر الهواء على حمل الطيور فقط، بل تراه اليوم يحمل الطائرات بأثقالها، كما تحمل البحار السفن.

ولولا وجود الهواء لما حلَّقت الطيور في الفضاء، ولما تمكَّنت الطائرات من الإقلاع من مدرجات المطارات.. والهواء هو الذي يمكِّننا من سماع بعضنا البعض، لأنه الوسيطُ الذي تنتقل فيه الأصوات.. إنه نعمة عظيمة، وأقل ما يجب علينا أن نحفظه نقيًّا خاليًا من الملوِّثات.

موازنة عجيبة في الهواء

الهواء الجوي ليس عنصرًا واحدًا، بل هو خليط من عدة غازات مختلفة، تحافظ هذه الغازات على خصائصها ولا تتفاعل مع بعضها البعض، ولو كانت تتفاعل مع بعضها البعض لتكونت من غازات الهواء مواد أخرى، ولحرمنا كل النعم التي خُلقتْ من أجلنا في الهواء.

والهواء كتلة من الغازات تحيط بالكرة الأرضية، ويزن هذا المحيط من الهواء حوالي خمسة آلاف مليون مليون طن، ويسلط منه على رؤوسنا حوالي ١٥ باون "رطل" لكل بوصة مربعة، لكننا لا نشعر بهذا الضغط؛ لأن الخالق الحكيم الرحيم أوجد ضغطًا لدماء وسوائل الجسم ما يعادل هذا الضغط الخارجي للهواء ويتناسب معه.

يحتوي الهواء على نسبة ثابتة من الأكسجين مقدارها ٢١٪، وبالرغم من استهلاك الأكسجين المتسمر في عمليات التنفس، تبقى هذه النسبة ثابتة لا تزيد ولا تنقص. فقد أوجد الله النبات الذي يعطي الأكسجين باستمرار فَيَفِي حاجات الحياة، ولو نقصت نسبة الأكسجين لقضي على الكائنات الحية، كما أنه لو زادت نسبته لاشتعلت الحرائق في كل مكان، إذ إنه يساعد على الاشتعال.

كثيرًا ما نرى الرياح تنتقل بقوة عارمة، وتنقل معها الهواء من مكان إلى مكان، وأحيانًا تقلع الأشجار، وتخرب البنيان، ثم تغادر الأرض فلا يبقى لها أثر. فلِمَ لا يغادر الهواء الأرض أيضًا؟ والجواب أن الله تعالى قد جعل للأرض جاذبية تمسك بالغلاف الهوائي فلا يغادرها حتى تستقيم الحياة على الأرض، لأنه لولا وجود الهواء لما كانت هناك حياة على وجه الأرض.

جعل الله تعالى الهواء غازًا قابلاً للانتشار يملأ أيّ حيز من الفراغ فيسهل تنفس الكائنات، وجعله في طبقات مختلفة ذا تركيب شفاف يسمح بنفاذ الضوء، فيسعى الإنسان في النور، وتتزين السماء باللون الأزرق الجميل.

يقوم الهواء بتلقيح الأزهار، ولولا ذلك لتعذر الحصول على الطعام والحب والثمار. وقد اقتضت حكمته تعالى أن يملأ الهواء الجوي بغاز النيتروجين الذي يساعد النباتات البقولية في صنع غذائها عن طريق الامتصاص، كما أن عواصف البرق تؤدي إلى اتحاد الأكسجين والنيتروجين، لتكوين أكسيد النتروز الذي

ينزل مع المطر فيكون سمادًا للتربة. كما تقوم طبقة الأوزون بترشيح أشعة الشمس لمنع وصول الأشعة فوق البنفسجية الضارة إلى طبقات الجو السفلى.

الهواء الجوي درع

تغزو ملايين الشهب والنيازك الأرض بكمية تكفي لإبادة البشر، وتقضي على الأخضر واليابس، فاقتضت حكمة الخبير العليم أن يجعل سمك الغلاف الجوي ثمانية عشر ألف ميل، وصممه بإحكام شديد وميزان دقيق؛ ليتم إحراق الشهب والنيازك والأشعة القاتلة قبل أن تصل إلى الأرض، فكان الهواء كالدرع الواقي لسكان الأرض من الخطر. إنه أشبه بالمشيمة التي تحيط بالجنين، فحين تعبر منها الدماء إلى الجنين، فإنها تمنع المواد الضارة من العبور وتسمح فقط بالمواد النافعة، مثلما يقوم غلاف الأوزون بمنع الأشعة الضارة بالكائنات الحية من العبور.

توزيع الهواء بين الكائنات

أعطى الله تعالى كل كائن حاجته من الأكسجين، فالحشرات الصغيرة الحجم تحتاج إلى كميات قليلة، لذا فجهازها التنفسي بسيط للغاية، وهو عبارة عن ثقوب في جوانبها.

والأسماك والحيتان في البحر تحتاج إلى تنفس الأكسجين، فجُعِل الأكسجين يذوب في الماء، وأُوجِد في الأسماك الخياشيم التي تستخلص بها الأكسجين من الماء ليصل إلى كل خلية في أجسامها.

كما أن الإنسان الكبير الحجم يحتاج إلى كميات كبيرة من الأكسجين، فأوجد له خالقه الرئتين، وجعل له جهازًا خاصًا بالتنفس ينقل الأكسجين عبر الدماء، فيصل إلى كل خلية في جسمه.. وليس ذلك فحسب، بل يأخذ غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يضره، فيطرده خارج الجسم.

جعل الله تعالى جهاز التنفس يدخل الهواء بقدر، وجعل حركة ذلك إليه لا بإرادة الإنسان حتى لا يسرف ويتجاوز الحد، وكذلك لا يقتر ويبخل على نفسه؛ جعله الله يعمل بلا كلل ولا ملل أو توقف، يعمل في كل مكان وفي كل حال، يعمل والإنسان مشغول في عمله، كما يعمل والإنسان غافل غارق في نومه، فالإنسان نَفَس داخل، ونَفَس خارج، فإذا انقطع النَفَس، انقضى الأجل.

إن في كل ما تم ذكره، دعوة إلى العقل البشري أن يتجول في هذا المعرض الإلهي (الكون) المفعم بالآيات والعجائب. فالله تعالى هو خالق الحياة، وهو الذي أمد الأحياء بما تحتاج إليه من الهواء، وهو الذي أنعم على الأحياء بالهواء للتنفس، وهو الذي يحميها به من أخطار الشهب والنيازك، ويلقح به الكثير من النباتات، ويحمل به الأمطار، ويوازن بضغط الهواء ضغط السوائل في أجسام الكائنات. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

د. محمد الدرداري*

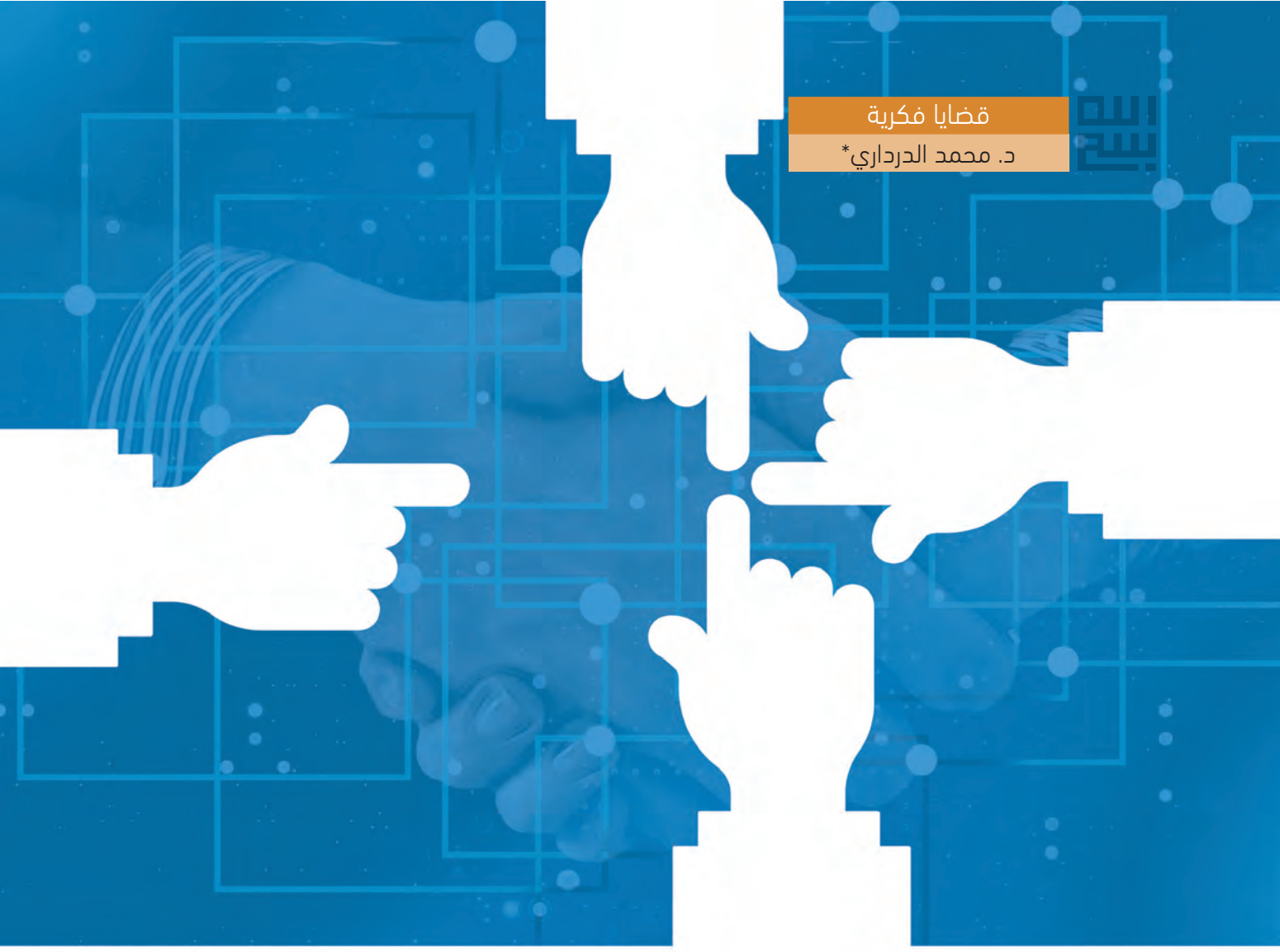

الجالية المسلمة في الغرب
وآليات الانفتاح الإيجابي

إن انفتاح الأقليات المسلمة على غيرها في البلدان الأوروبية، له من المزايا والفضائل ما يجعل دعوة الإسلام تصل إلى مختلف البقاع وتنتشر في سائر الأقطار، ولا شك أن ذلك يشكِّل فرصة سانحة أمام أبناء الغرب ليصحِّحوا ما علق في أذهانهم من مزاعم باطلة عن الإسلام والمسلمين، إذ من خلال ذلك يتعرَّفون على الإسلام والمسلمين، ويدركون أن ما رسَخ في أذهانهم من صورة نمطية سلبية، لا يعدو أن يكون أباطيل روَّجتها بعض الجهات لكي تخدم أجندتها الخاصة. إن انفتاح الأقليات المسلمة في الغرب، ينبغي أن يمر عبر المشاركة الفاعلة في مختلف المجالات الحياتية؛ الحضارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية.. وفي ضوء ذلك يتحدد مدى قدرة هؤلاء على الاندماج الفاعل والإيجابي في البلدان المستقبِلة.

المشاركة في البناء الحضاري

لقد مكث المسلمون في الغرب لسنوات مديدة وهم يعيشون على هامش الحضارة

الغربية، فلم يكن دورهم ليخرج عن استهلاك منتجات تلك الحضارة، سواء فيما يتعلق بالمنتجات الأدبية أو الفنية أو العلمية.. يأخذون ولا يُعطون، يستفيدون ولا يُفيدون، يتأثرون ولا يُؤثرون؛ إذ لم تكن عندهم القدرة على المشاركة الحضارية سوى القيام ببعض الأعمال اليدوية أو التقليدية البسيطة.

وهكذا ارتبط الإسلام عند فئات عريضة من أبناء المجتمع الغربي بالتخلف الحضاري والعلمي والثقافي، ولم يَفْصِلوا بين الإسلام كدين رباني يحث على التقدم والإبداع والبحث العلمي، وبين حال المسلمين الذين تخلَّوا عن قيم دينهم فأصبحوا متخلِّفين علميًّا وحضاريًّا، يعيشون في مؤخرة الأمم تابعين يستوردون كل شيء دون رغبة أكيدة منهم في الاستقلال بذواتهم عن التبعية للغرب.

إن الشراكة الحضارية للأقليات المسلمة في بلاد المهجر، تعدُّ مدخلاً فاعلاً في تصحيح الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين في الغرب، إذ من خلال ذلك تَبطل -وبشكل عملي- جملة من الشبه والافتراءات التي دأب أصحاب المصالح على بثها وترويجها في الأوساط الغربية، وهذه الشراكة اليوم هي إحدى أهم التحديات التي تواجه المسلمين في بلدان إقامتهم، وذلك بالنظر إلى الحجم الضئيل لإسهام هؤلاء في تنمية الجسم الحضاري الغربي.

إن هذه الشراكة المنشودة تستند إلى أصول ثابتة في الشرع الحنيف، فالمسلم ينبغي أن يكون صاحب رسالة في أيّ موطن كان، فالأرض كلها لله، ومن مقتضيات تلك الرسالة أن ينفع الناس ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وأن يتعاون معهم فيما فيه الخير والصلاح، لقوله ﷺ: "أَحَبُّ الناس إلى الله أَنفعُهم للناس" (رواه الطبراني)، كما نجد هذا المعنى متضمنًا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣)؛ فمن بين مقتضيات الشهادة على الناس، أن ننقل إليهم ما عندنا من خير سواء كان ماديًّا أو معنويًّا، قليلاً أو كثيرًا، دينيًّا أو دنيويًّا.. وهذا معناه أن يَمُدَّ المسلمُ جسورَ التواصل مع من يعيش معهم ليشترك الجميع في المصلحة المشتركة، وهذا كله واجب على المسلم الذي يعيش مع غيره في أي مجتمع، بغض النظر

الشراكة الحضارية للأقليات المسلمة في بلاد المهجر، تعدُّ مدخلاً فاعلاً في تصحيح الصورة عن الإسلام والمسلمين، ومن خلال ذلك تَبطل جملة من الشبه التي دأب أصحاب المصالح على بثها وترويجها في الأوساط الغربية.

عن الاختلاف الحاصل بينهم في الدين أو اللغة أو الثقافة.

المشاركة السياسية الرشيدة

يمكن للمرء أن يقرر بأن المشاركة السياسية للأقليات المسلمة في الغرب، تمثل أبرز مظاهر الاندماج الإيجابي في تلك المجتمعات، فإذا كان الانفتاح على المحيط المختلف ثقافيًّا ودينيًّا ونبذ الانطواء من المعايير المحددة لاندماج الأفراد، فإن المشاركة السياسية تعتبر مؤشرًا دقيقًا لمعرفة مدى رغبة المجموعات والأقليات والطوائف في التعايش، وتحقيق أعلى درجات الانفتاح الإيجابي والفعال.

يقول الدكتور حسام شاكر متحدثًا عن مفهوم المشاركة السياسية لمسلمي أوروبا: "يُقصد بالمشاركة السياسية الرشيدة لمسلمي أوروبا، ما يُبتغى منه تحقيق تفاعلهم الإيجابي المثمر مع الساحة السياسية بشتى الأشكال الممكنة بالصورة التي تتوافق مع خصوصيات الساحة الأوروبية، وتستهدي أيضًا بالتوجيهات الإسلامية"[1].

إن الإقبال على ممارسة العمل السياسي في بلاد المهجر، له من الأهمية ما يبوّئه المكانة الرفيعة، وذلك لما يترتب عليه من التعريف الصحيح بالدين الإسلامي، وإيجاد نخبة سياسية قادرة على الدفاع عن حقوق الأقليات المسلمة وتعريف أبنائها بحقوقهم وواجباتهم وفق الأطر القانونية داخل الدول الأوروبية، بما يضمن حضورًا لائقًا للمسلمين في هذه الساحة على أسس التفاعل السليم مع شركاء المواطنة من الأطراف السياسية والحزبية الأخرى.

وإذا كان حضور المسلمين سياسيًّا في الغرب لا محيد عنه، لما له من أهمية بالغة في خلق جسور التواصل والانفتاح والتعايش مع الآخر، فإن ترجمة ذلك عمليًّا يمكن أن يتم في ضوء الإجراءات الآتية:

أ- انخراط المسلمين في العمل السياسي عبر

hiragate.com

تأسيس أحزاب، أو التحاقهم بأحزاب وتكتلات سياسية قائمة في المجال الغربي.

بـ- التصويت في الانتخابات الرئاسية والبرلمانية والترشح لذلك.

جـ- المشاركة في الاستفتاء على الدساتير بالقبول أو الرفض.

د- المساهمة في الأنشطة الحزبية والحكومية والدستورية.

هـ- المساهمة في تمويل الأنشطة السياسية والحزبية بما يخدم المصلحة العامة، وبالشكل الذي لا يتعارض مع القانون أو يخرج عنه.

و- المشاركة في التظاهرات الجماهيرية السلمية، وإعداد العرائض وتوقيعها، والمطالبة باتخاذ إجراءات أو سن قوانين، وغير ذلك من الأنشطة، شريطة أن لا تكون خارجة عن إرادة القانون.

ز- بناء التحالفات مع مختلف القوى السياسية أو الحزبية أو النقابية، لما يرجى معه من الانفتاح على الآخر، وزيادة القدرة على التأثير أو الضغط على بعض القوى الانتهازية ذات التوجه اليميني المتطرف.

حـ- تنظيم النشاطات الفكرية ذات التوجه السياسي كمحاضرات وندوات ودورات تكوينية أيام الدراسة، بغية نشر الوعي السياسي في صفوف أبناء الأقليات الإسلامية وتأهيلها لتحمل مسؤولياتها داخل المجتمعات الغربية.

المشاركة في العمل الخيري التطوعي

ويراد بذلك انخراط الإنسان المسلم في بلاد المهجر في العمل الاجتماعي التطوعي الذي تتعدى فائدته حدود الفرد المسلم لتشمل كل أفراد المجتمع دون استثناء، بغض النظر عن الانتماء الديني أو العرقي أو الأيديولوجي، وغيرها من الاعتبارات الأخرى.

ومما لا شك فيه، إن ما تقوم به بعض الجمعيات والمنظمات والمؤسسات الإسلامية في الغرب من عمل خيري إحساني على تواضعه، يساهم في إبراز الصورة الحقيقية للإسلام الحنيف، ويدحض الصور النمطية السيئة التي غرسها بعض الإعلام الغربي في عقول الناس عن الإسلام والمسلمين.

والعمل التطوعي الذي ننشد النهوض به في صفوف المسلمين في مجتمع الأقليات، يتخذ صورًا عدة، منها:

١- تقديم يد العون والمساعدة أثناء الكوارث؛ كالزلازل أو الفيضانات أو الحروب.

٢- تقديم الدعم المادي والمعنوي للهيئات والمنظمات الإنسانية الغربية، التي تشتغل في مجال الإغاثة والتكفل بذوي الاحتياجات الخاصة.

٣- تأسيس مشاريع خيرية مستقلة لمحاربة التشرد والحرمان والجريمة.

٤- الانخراط في الحملات التوعوية التي تستهدف الصحة العامة، مثل حملات التشجير، وتنظيف المرافق العام كالشوارع والحدائق والممرات، ونشر الوعي حول خطورة بعض الآفات كتعاطي المخدرات والتدخين.

المشاركة في المناسبات الاجتماعية

• تلبية دعوتهم في المناسبات الاجتماعية كالزفاف، وازدياد مولود، وغيرها.. ودعوتهم إلى حضور مناسباتنا المختلفة.

• عيادتهم في المرض، والاطمئنان عليهم، وتفقُّدهم بين الفينة والأخرى، والدعاء لهم بالهداية والشفاء.

• تهنئتهم بالنجاح في العمل أو الدراسة أو غيرها من المناسبات المفرحة. ومواساتهم عند نزول الكرب، كموت أو حادث وغير ذلك، تقديم الهدايا إليهم وقبولها منهم.

إن الالتزام بهذه الأخلاق الاجتماعية والقيم الإنسانية والحضارية في بلاد المهجر يعدُّ واجبًا شرعيًّا، فبالإضافة إلى ما يتحقق في ظل ذلك من التخفيف على الناس ورفع الكرب عنهم، فإنه يسهم في الدعوة إلى الله بالحسنى، ويعرف الناس بالإسلام وما فيه من الأحكام التي فيها صلاح للناس، وما فيه من الآداب والمكارم التي تأسر مشاعرهم وتستحوذ على عقولهم وقلوبهم[٢]. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

الهوامش

(١) مسلمو أوروبا والمشاركة السياسية، لحسام شاكر، إصدارات المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، دبلن ٢٠٠٧م، ص:٢٢١.

(٢) حكم مشاركة المسلمين في مجتمع الأقليات اجتماعيًّا وسياسيًّا، للدكتور حمزة بن حسين العفر الشريف، المجلة العلمية للمجلس الأوروبي، ع/١١-١٢، ١٢ رجب ١٤٢٩هـ، ص:٢٨٥.

hiragate.com

د. أحمد إسماعيل عبد الكريم*

أخلاقيات الإسلام في الحرب

عندما يحدث عمل إرهابي هنا أو هناك، تنطلق النداءات الجوفاء محذِّرةً من الإسلام، منفِّرةً من معتنقيه.. وكأن أصحاب هذه النداءات -بدراية وبدون دراية- نسوا أو تناسوا أن الإسلام دعا منذ بزوغه إلى الرحمة والسلام.. فلم يثبت في الرسالة السمحاء، ولا في السنَّة النبوية، كلمة واحدة تدعو إلى الشدة والقسوة، أو تحث على ترويع جنس أو مِلَّة من الملل.. إن الإسلام ينشد السلام، ويؤصل للحرِّية بكافة صورها وعلى رأسها حرية العقيدة والتوجه، فلا إكراه ولا قسر ولا جبر ولا اضطهاد، بل حرية واقتناع واختيار.. وحسبنا التاريخ دليلاً على ذلك؛ فلم يثبت أن اُضطهد أحد أو أُجبر تحت حكم الدولة الإسلامية على التخلِّي عن معتقداته إيمانًا وممارسة، بل إن غير المسلمين وجدوا في كنف الإسلام ما تطمئن به قلوبهم؛ فلم تُنتهك حقوقهم، فنعموا بالحياة وزاولوا كل طقوسهم في حرية وأمان.. فالإسلام له أخلاقيات وقت الحرب وليس وقت السلم فقط (أي في وقت اشتداد الأزمات)، ليعلم كل ذي عقل أن الإسلام بريء من كل عمل يتنافى مع رحمة الإسلام.

يختلف مفهوم الحرب في الفكر الإسلامي عن فلسفة الحرب ومآربها في الأدبيات العالمية؛ فالحروب في العالم تقوم لتلبية أهداف دنيوية وتحقيق أطماع سياسية وأهداف توسُّعية، أما الحرب في المنظور الإسلامي تتسم بسلوك متميز، إذ لم يترك الإسلام إدارة المعارك لهوى نفوس قادة الجيش وجنودهم، بل إنها نهضت على أسس قويمة من التشريع مثلت دستورًا إسلاميًّا، يأثم من يخالفه إلى قيام الساعة. فقد رفض الإسلام ضرب الأهداف المدنية، أو التعرض لغير المقاتلين من الرهبان والشيوخ والنساء والأطفال.. وقد ظهرت أخلاقيات الإسلام في الحرب في عدة أمور:

مراعاة الرحمة في الحرب

راعى التشريع الإسلامي عنصر الرحمة في حالة تصادم القوى المتصارعة في وقت نشوب الحرب، وذلك لأن الإسلام جاء رحمة للعالمين، ولم يأت لسفك الدماء والتشفي من الخلائق.. وقد كانت أوامره في ساحة القتال تملأ دستورًا في كيفية معاملة المقاتلين، فإذا قامت الحرب وجبت مراعاة الرحمة، فلا يتعرض بالقتال إلا لمن يقاتل بالفعل أو يشترك فيه بشكل أو بآخر، وذلك لحصر الضرر في دائرة ضيقة. فالحرب ضرورة تقدر بقدرها، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة:١٩٠).

وقد كان الرسول ﷺ يوصي قادة الجيوش ألاّ يحملوا السلاح إلا بعد بينة يستبين لهم معها خطورة العدو وغدره، فلا يستخدمون وسيلة تدمير أو فتكٍ إذا أمكن تحقيق المقصود بالأخف، لأنه إفساد في غير محله.. وقد أنكر رسول الله ﷺ بعض اعتداءات أصحابه في إحدى الغزوات في الوقت الذي تُستباح فيه الدماء من وجهة نظر العسكريين بطريقة غير إنسانية من وجهة نظر الإسلام، حيث يروى أنه مرّ ﷺ في غزوة غزاها وأصحابه ﷺ على امرأة مقتولة فوقف عليها، ثم قال: "ما كانت هذه لتقتل"، ثم نظر في وجوه أصحابه، وقال لأحدهم: "اِلحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفًا -أي أجيرًا- ولا امرأة".

وقد حملت وصايا الرسول ﷺ كثيرًا من الدلالات الواضحة على أنَّ الإسلام ما كان يرمي إلى قتال الأعداء أو التشفي بالدماء وإشاعة الفساد في الأرض، وأنه ما كان ليدخل في حرب إذا وجدت الحلول السلمية، أو وُجد في سلوك العدو بصيصٌ من أمل في الجنوح إلى السلام، وقد كان ﷺ يلتمس السلام أنى وجده استعان به. وكان الصحابة ﷺ على نهج رسول الله ﷺ يشددون في التحذير من التنكيل بالأعداء، رعاية لحرمة الإنسان وحفظًا لكرامة إنسانيته، فمن وصايا عمر بن الخطاب ﷺ لأمراء الجنود: "لا تقتلوا هرِمًا ولا امرأة ولا وليدًا وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات". وإن الإمام علي ﷺ يطلب في عهده مالك الأشتر، ويحذِّره من سفك الدماء بغير حلها، حيث يقول: إياك والدماء وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدنى لنقمة ولا أعظم لتبعة، ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها، والله ﷻ مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه، بل يزيله وينقله، ولا عذر لك عند الله ولا عندي في القتل العمد".

عدم التمثيل بجثث القتلى

ينهى الإسلام عن التمثيل بالقتلى، حتى يرتفع بالحرب عن المستوى الذي لا يليق بدعاة الرحمة والعدل، فعن عبد الله بن زيد ﷺ قال: "نهى النبي عن النهبة والمثلة" (رواه البخاري)، وقال

أيضًا: "ولا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا صغيرًا ولا امرأة ولا تغلوا، وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين" (رواه البيهقي). أجل، نهى الإسلام عن التمثيل بجثث القتلى بأي صورة من صور التمثيل، ولهذا ذهب بعض الفقهاء إلى عدم جواز الحرب البكتريولوجية والكيماوية والذرية؛ لمنافاتها مبدأ الرحمة العامة وأوامر الشارع بالإحسان في القتل، والنهي عن التمثيل بتناول جميع صور الأسلحة التي تؤدي إلى تشويه جثث القتلى.

إن الإسلام ينشد السلام ويؤصل للحرِّية بكافة صورها وعلى رأسها حرية العقيدة والتوجه، ولم يثبت في الرسالة السمحاء، ولا في السنَّة النبوية، كلمة واحدة تدعو إلى الشدة والقسوة، أو تحث على ترويع جنس أو مِلَّة من الملل.

وهكذا سار الصحابة رضوان الله عليهم أجميعن على نهج رسول الله ﷺ ونقلوا ذلك إلى التابعين، فكانت أوامرهم ونواهيهم تنفر من القتل بغير حق، وتحذر منه بكل شدة، كما تنفر من التمثيل بالجثث، وذلك احترامًا لآدمية الإنسان، وتقديرًا للتكريم الذي احتفى به الله وملائكته يوم خلقه دون النظر لأي اعتبارات أخرى، فقد جاء فيما ذكره زيد بن وهب أنه قال: أتانا كتاب عمر وفيه: "لا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليدًا واتقوا الله في الفلاحين".

الحفاظ على مظاهر البيئة

الإسلام يدعو إلى إشاعة الأمن البيئي والسلام بين أحيائها، ومراعاة كافة الكائنات الحية.. وينبغي ألاّ يستخدم أيًّا من مقومات البيئة التي يعتمدها الأعداء كمصدر اقتصادي دروعًا للنيل من الأعداء بحجة قصم ظهر الخصم، لأن ذلك عين الإفساد الذي نهى الإسلام عنه. وقد جاءت الأوامر الإسلامية واضحة صريحة في النهي عن الإفساد والتخريب والنيل من مقومات البيئة، ومن وصايا الرسول ﷺ للجيش المتحرك لقتال الروم في غزوة مؤتة، أنه نهى عن الاعتداء على العناصر المدنية: "...ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة ولا تهدموا بناءً".

وقد اقتفى الصحابة ﷺ والتابعون أثر الرسول ﷺ فلم يخالفوه في تذكير قادة الجيوش بقواعد الإسلام في التعامل مع الأعداء ومقدراتهم وما يستعينون به على الحياة، فقد جاء عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر الصديق ﷺ بعث جيوشًا إلى الشام، فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان، فقال له: "إني موصيك بعشر خلال: لا تقتل امرأة ولا صبيًّا ولا كبيرًا هرمًا.. ولا تقطع شجرًا مثمرًا، ولا تخرب عامرًا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، ولا تعقرن نخلاً ولا تحرقه، ولا تغلل (أي تسرق) ولا تأخذ غير حقك".

وهكذا كانت الشريعة الإسلامية تمنع، بل تحرِّم الإفساد في البيئة بدعوى إنهاك قوى العدو والنيل منه، وشل حركته اقتصاديًّا ودحره.. ولنا أن نستأنس بما قاله الأوزاعي: "لا يحل للمسلمين أن يفعلوا شيئًا مما يرجع إلى التخريب في دار الحرب؛ لأن ذلك فساد، والله تعالى لا يحب الفساد". والحق أن هذه مظاهر حضارية رائعة وإنسانية متميزة سبق الإسلام إلى تشريعها، فاتبعها الخلفاء والفقهاء المسلمون، وسارعوا إلى تقريرها منذ بزوغ فجر الإسلام قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمن.. فبعد هذا كله، فهل يمكن لذي عقل رشيد أن يصم الإسلام أو تشريعاته السمحة، أنها تدعو إلى الإرهاب؟! أو تتهاون مع مَن يبث الذعر والهلع بين بني البشر على اختلاف مِلاَّتهم وألوانهم وأجناسهم؟! ■

(*) كاتب وباحث مصري.

فتح الله كولن

سر الفتح

إن السِّر الذي هزَّ أركان الأرض كلها على أيدي أحد عشر حواريًّا، هو عمق إخلاصهم وصدق سلوكهم الذي حرَّك في قلوب الناس عاطفة الإيمان. وكذلك ساداتنا الصحب الكرام -رضوان الله عليهم- انطلقوا في شتى بقاع العالم يحملون مشاعل الإيمان في أيديهم، فتفتحت لهم القلوب بالقبول حيثما حلُّوا. ما السر؟ يكمن السر في سلوكهم الصادق الذي يثير في القلوب الغبطة والإعجاب ويحثهم على التجاوب معهم.

هكذا سارت قاطرة الزمان قرنًا بعد قرن حتى بلغت عصرنا الراهن، فإذا بالمسلمين قد ازدادت أعدادهم، وامتدت رقعة أراضيهم، في حين أن الروح فقدت لهيبَها في النفوس، والمعاني انطفأت جذوتُها في القلوب، فاختلّ التوازن بين الكمّ والكيف.

اليوم لدينا العقل المفكِّر، وعندنا المنطق المدبِّر، وقد تفوَّقنا على القدماء من أسلافنا في مجال العلوم والمعارف والتكنولوجيا بصورة هائلة. لكن شتان بين قلوبنا وبين القلوب التي كانت تخفق في جوانحهم. إننا اليوم محرومون من نعمة كبرى كانوا يملكونها؛ نعمة الاستشعار بالله في كل خفقة من خفقات القلب، ثم تجلِّي ذلك الاستشعار في ملامح الوجه وظهورُ آثاره في السلوك. أجل، كان ينبغي أن ينعكس خفقان قلوبنا على وجوهنا وسلوكنا، وأن يكون مَظهرُنا مرآة لما يموج في بواطننا من إخلاص ويقين. انظر إلى الساعة كيف انعكس عملها الداخلي على مظهرها الخارجي في صورة نظام فريد، انظر كيف تنتقل العقارب بين الثواني والدقائق والساعات بدقة فائقة. ما أعظم هذا الإبداع وما أروعه، أليس كذلك؟ ولكن هل انتبهت إلى أن المحرك الداخلي هو من ضبط إيقاعات الساعة الخارجية؟

إن منابع الحيوية كامنة في باطن الإنسان؛ في قلبه، في لطيفته الربانية، في

سره، في خفيِّه، في أخفاه، في أعماقه اللانهائية. وعندما تتفجر هذه المنابع من الأعماق تظهر انعكاساتها سلوكًا على الجوارح والملامح والأطراف. ما يَنقص العالَمَ الإسلامي اليوم ليس العلم ولا التكنولوجيا ولا المال؛ نقصُنا الحقيقي سلوك صادق، وحال مخلصة، وحياة قلبية عميقة توجِّهنا في قيامنا وقعودنا وترشدنا في حِلّنا وترحالنا. إن ما ينقصنا صورة سلوكية صادقة تحرّك مكامن الإيمان في قلوب الناس وتحضهم على التصديق برسالتنا الخالدة.

بين الأسباب والخوارق

لا تحسبنَّ ثمار الدعوة إلى الله تأتيك مجَّانًا دون جهد من خلال خوارق تنزل من السماء.. كلا، احرص على أن تأخذ بالأسباب كاملة حتى يأتك الخير مدرارًا. ذلك هو الأصل في شريعة الفطرة وسنة الكون. انظر إلى النبات، أتراه يثمر دفعة واحدة؟! إنما يحتاج إلى زمن طويل من العناية والرعاية حتى ينبت وينمو ويستوي يؤتي أُكُلَه. وكذا البيضة لا يَخرُج فرخُها سالمًا إلا بعد زمن معلوم. فإن كنت ترجو ثمرة لخدماتك في ساحة الدعوة إلى الله، فاعلم أنه لن يتأتى ذلك إلا بعد أن تلتزم بكامل الأسباب الصحيحة والأساليب الصائبة التي تنسجم مع طبيعة تلك الخدمات. والعكس سعيٌ وراء أحلام لا تتحقق أبدًا. أتظن أن الله سيغير سنته الكونية من أجل سواد عيوننا، وهو الذي لم يغيرها من أجل أنبيائه، بل حتى من أجل حبيبه الأكرم ورسوله الأعظم ﷺ؟! الأنبياء جميعهم وعلى رأسهم سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام، عملوا بجد وكافحوا بحكمة سنين طويلة صابرين مثابرين حتى جاء اللطف الرباني نصرًا وتوفيقًا منه تعالى وثمرة لذلك الكفاح الطويل. إذن، من أراد التوفيق والنجاح فليسلك درب الأنبياء.

صاحب القضية

ينبغي على كل من قُدِّر لهم أن يكونوا "أسوة" في أي خدمة إيمانية، أن يكونوا "رجال خدمة" حقًّا بكل كيانهم، وفي كل شأن من شؤون حياتهم.. عليهم أن يسعوا ليل نهار دون توقف، ينبغي ألا يراهم أحد نائمين؛ بل إذا أمكن فلتكن ثلاث ساعات من يومهم لنومهم وساعتان لسائر شؤونهم، ثم لينطلقوا ساعين فيما تبقَّى من أوقاتهم. بهذا المستوى من الأداء فحسب، يمكنهم أن يكونوا "مثالاً" لمن حولهم، ويكونوا قد وفَّوا المسؤولية حقَّها. إن أبطالاً قد نذروا أنفسهم للخدمة وفق هذه المقاييس، ينبغي أن يخطئوا الطريق إلى منازلهم في بعض الأحيان. على "رجل الخدمة" أن يدير ظهره إلى كل شيء يشغله عن قضيته، وألا يقع أسير أي قيد يمنعه من السعي أبدًا، مَنزلاً كان أو ثروة أو أي شيء آخر. إن "صاحب القضية" ليس له حياة خاصة، اللهم إلا في بعض شؤونه الضرورية. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

د. ناصر أحمد سنه*

التطفيف والمطففون

للتحليق في سماء التحضر والرفاه جناحان: جناح الأشياء والماديات، وجناح الأفكار والاجتماعيات، فإذا اتسم الجناحان بالقوة وعلامات الصحة والعافية؛ تبوّأت المجتمعات مكانها ومكانتها الحضارية والرسالية، أما إذا اتسما بالوهن والضعف والمرض؛ تأخرت وتنكبت طريقها واضمحل دورها الرسالي والحضاري. ومن علامات الوهن والمرض "التطفيف". ولقد كرس نبي الله "شعيب" عليه السلام جُلَّ دعوته لقومه "للوفاء بالكيل والميزان"، ولولا فداحة هذا الأمر، ولولا أنه من العدل ومدار معاملات الخلق، لما جرى لقومه ما جرى.

فأحد الأهداف الرئيسة لدعوة الأنبياء والرسل، إقامة العدل ودعوة الناس للوفاء بالكيل والميزان. وعدالة الكيل والميزان كعدالة ميزان الكون والخلق، ومراعاة ذلك من أصول النظام الكوني الكلّي.

المفهوم والمظاهر

التطفيف هو الاستيفاء الكامل، وأحيانًا الزيادة القسرية للبضاعة عند الشراء، وإبخاسها وإنقاصها -ولو قليلاً- إجبارًا عند البيع، وكل إنقاص عمَّا هو متفق عليه تطفيف، وهو مطلق نقص وبخس السلع والخدمات، والحقوق والواجبات، والزيادة القسرية على المستهلكين وأخذ مالهم بغير حق، سواء أكان حيازة في جيوبهم أم مالاً عامًّا، وهو "كيل بمكيالين، وقياس بمقياسين، وإزدواجية معايير في المعاملات. إنك ترى "القصَّاب" يضرب كفة ميزانه بقطعة لحم لترجيح الوزن، ويسلِّط "الصائغ" مروحة على ميزان الذهب الحساس، ويطفف

"المكاري" أجره ولو بسيف الحياء.. وإذا عرضت سيارتك للبيع يأتيك سعرها بأبخس الأثمان، وإذا أردت شراء "نظيرتها" ارتفع ثمنها.. ويُقلل "المطفف" من المواصفات المطلوبة لإنتاجه، ويبخس من بضاعة يريد شراءها، ويتحايل على أخرى "كاسدة" يتمنى تصريفها.

وكما ترى الحِرَفي أو المهني أو الموظف، يطفف ويُقصر ويُخسر في عمله وإنتاجه وخدمته المتفق عليها كمًّا وكيفًا.. ومع ذلك يُكثر التبرُّم والشكوى من وضعه المالي والإداري، ومن ثم يبالغون في مستوى أجورهم والمطالبة بترقياتهم.. وهناك مدراء وأرباب أعمال يتعسفون في المطالبة بأقصى الواجبات من مرؤوسيهم، ولا يبالون بأداء حقوقهم المشروعة، بل ويُنقصون ويماطلون ويهضمون حق الأجير والعامل المسكين.. يقول الله تعالى في الحديث القدسي: "ثلاثةٌ أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدَر، ورجل باع حرًّا فأكلَ ثمنَه، ورجلٌ استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجرَه" (رواه البخاري).

و"يطفف" المعلِّم في دروسه فيتأخر ويغيب عن بعضها دون عذر، ويُشغل بأشياء خارجة عن درسه ولا يعطي كل ما في جعبته من علم ومعرفة، ليحظى بهما مَن يأخذ لديه درسًا خاصًّا.. ومن مطففي العصر الراهن مَن يستعمل نفوذه وقدرته المالية فيستحوذ -بأقلّ الأثمان- على أغلب حصة السوق ثم يبيع بأغلى الأسعار، وقد يحتكر تلك السلع والخدمات، وقد يجرّ أموال وحقوق الناس نحوه بحيلة ودهاء فيستثمر بعضهم أمواله معه.. وحسب هذا تكون المؤسسات الخدمية، والمنظمات التعليمية، والمؤسسات الصناعية والتجارية في معرض الوقوع في التطفيف.

ويتداخل التطفيف مع الغش بأنواعه المادية والمعنوية؛ فترى بيع الفاسد من الأطعمة خداعًا وخلسة، وإضافة مواد ضارة لعلائق الحيوانات والدواجن، ورش المحاصيل والخضراوات والفاكهة بمبيدات حشرية خطيرة، وحقنها بهرمونات لتغدو كبيرة الحجم زاهية اللون. ويخلط بعض محاصيل الطحين بمادة ضارة (سبيداج) لتغدو ناصعة البياض، وللتعمية عن ذلك يغالي في سعرها ليوهم بجودتها..

من الأهداف الرئيسة لدعوة الأنبياء والرسل، إقامة العدل ودعوة الناس للوفاء بالكيل والميزان، وعدالة الكيل والميزان كعدالة ميزان الكون والخلق، ومراعاة ذلك من أصول النظام الكوني الكلّي.

هذا فضلاً عن غش سلع وخدمات العلامات التجارية الفائقة، والملكيات الفكرية الرائدة.

وقياسًا على "الغلول" (الاستحواذ على أشياء قبل توزيع الغنائم)؛ يُعتبر الأخذ من أغراض المتوفى قبل توزيع تركته على ورثته "تطفيفًا، وكذلك تطفيف القضاء والأحكام وأداء الشهادة أو كتمانها.. لذا فكل تجاوز وتعدٍّ على حقوق الآخرين وحدود الله سبحانه، يُعدُّ من سمات التطفيف، قال ابن مسعود ﷺ: الصلاة مكيالٌ، فمن وفى وفى الله له، ومن طفّف فقد سمعتم ما قال الله في المطففين، ويقول القرطبي: "إن التطفيف كما يتحقق في المكيل والموزون، يصدق أيضًا في الوضوء والصلاة ونقل الحديث". فمن تطفيف الصلاة عدم استيفاء وإقامة شروطها وأركانها وواجباتها وسننها. فنقص العبادة وبخس التجارة بين بعض العباد وربّهم تطفيف؛ فيريدون استيفاء الكثير من النعم، بينما يعطون -لدينهم- القليل، ولا يشكرون الله إلا قليلاً. ومن اللافت للنظر أن التصدي لشأن المطففين جاء في سورة مكية، وعادة توجه السور المكية اهتمامها لأمور العقيدة الكُلية، فإذا كان التطفيف بحق البشر مدعاة ويل وثبور ووعيد وهلاك، فكيف بالتطفيف بحق خالق الكون والسماوات والأرض، فإذا طففت حق إنسان فأنت هالك، فكيف إذا كان التطفيف بحق الخالق؟

التطفيف الاجتماعي

يسري التطفيف على الأشياء والماديات، يسري على الأفكار والاجتماعيات.. فلكل شيء وفاء وتطفيف. ويحرص المطففون من الأزواج والزوجات على استيفاء كامل حقوقهم ويستهينون بواجباتهم فيعطونها منقوصة خاسرة، وأحيانًا ظالمة. وتطفف الزَّوجة حين تنكر جميل زوجها عندما تختلف معه حول أمر أو

hiragate.com

موقف لا يرضيها ولم يحقق مرادها. وقد يشحّ الوالدان على أفراد عائلتهما -ذكورًا وإناثًا- بالعدل والحب والحنان، أو يتعاملان معهم بالشدّة والحرمان، وتتصف تربيتهما بالقصور والنقصان. ويطالب المطففون من الآباء أبناءهم بالبر الكامل ماديًا ومعنويًا، وهم العاقون لأولادهم. ويزعج الأبناء آباءهم بطلباتهم الباهظة، ثم لا يراعون برَّهم ولا ينتبهون لحقهم عليهم.

وويل للمطففين من الجيران الذين يرفعون عقيرتهم بالشكوى، ولا ينظرون إلى ما يقومون به -هم وأولادهم- من إيذاء الجار ويبخس الوصية به. وبالتالي إن ترك المكافأة، من التطفيف؛ فإذا قدم لك إنسان هدية، فقدم له الشكر وما يماثلها أو أفضل منها (فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله). ومن التطفيف الاجتماعي، تقليل جهود الآخرين وتضخيم الذات، ولين الجانب للأعداء وإظهار القسوة على الأولياء، والنفخ في النفوس الضعيفة لصنع جاهات كاذبة، وعدم تقدير جاهات في معية الله.

وهناك التطفيف في مخالفة الأقوال الأفعال، والغيبة والنميمة وشهادة الزور، فرُبَّ كلمة تطفيف تزهق روحًا وتفرق جمعًا وتثير فتنة.. ومنه تطفيف المستشار (المؤتمن)؛ فمَن استشارَه غيرُه في بيعٍ أو شراءٍ أو نكاحٍ، أو تولية عمَلٍ أو غير ذلك، وجب عليه تبيان ما يعرفه وما يعتقدُه، ويَحرُم عليه كتمان مواطن العيب والخلل، أو إظهار المحاسن فقط أو الثناء بما ليس فيه. وهناك التطفيف في المناظرات بالحجج والمقالات، فكما يحرص المتناظر على ما لديه من حجج، يجب عليه أيضًا تبيان ما لخصمه من الحُجة، والنظر -بعين الاعتبار والموضوعية- في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو.. وهنا يُعرف الإنصاف من التعصب والاعتساف، والتواضع من الكبر، والتعقل من السفاهه.

وعندما يحُكم المطففون من كتَّاب وصحفيين على أمر أو صاحب يحبُّونه فيزيدون في مدحه، ويغضون الطرف عن مثالبه ونقائصه، بينما يقومون ما لا يحبُّون فينقصون من حسناتهم ويزيدون في سيئاتهم.. كما يذكرون مؤسساتهم التي ينتمون إليها بكل إيجابية، ويقدحون في تلك التي لا ينتمون إليها. وهناك التطفيف مع المرؤوسين وفق العلاقات الشخصية، وتقريب وتمكين أهل الثقة، وإبعاد أهل العلم والكفاءة، وغض الطرف عن التقارير الوظيفية الموضوعية. وتطفيف بعض الصحف ووسائل الإعلام؛ فيكذبون ويخالفون الحق، ويشيعون الباطل، وينشرون الفواحش، وينتهكون أعراض الناس، ويتبنون قيم وعادات الآخر، ويُسفهون ما لدينا وهي الأصلح لنا.

عاقبة التطفيف

الابتعاد عن رحمة الله، واستحضار سخط الجبار وولوج النار، وهو سبب لنزول العذاب، وفقدان الثقة وحدوث الخسران، وهو دليل على شح النفس، والتعلق بالكسب الخبيث، وهو خيانة تتسبب في احتقار أهلها.. ويسبب التطفيف فرار المشترين والمستثمرين؛ فالشركات التي تتعامل بالتطفيف، لا تفقد سوقها فحسب، بل تحطّم موقعها الشعبي ومصالحها الوطنية، وتعمل على فقدان قيمة ومكانة ذلك الشعب، وتقلل من منزلته وفضيلته.. إن قوام الحياة الاجتماعية هو المعاملات والمبادلات، فإذا دفع أو أدى كل فرد أقل مما عليه وأخذ حقه كاملاً، سينتهي اعتماد الأفراد بعضهم على بعض، وستحل نماذج القدوة السيئة، وتزول الثقة بين الناس، وينشأ الحقد والنزاع الاجتماعي وسيزول الأمن المجتمعي. ويؤدي التطفيف لاختلال النظام الاقتصادي والمجتمعي والفساد في الأرض. والأمة التي يفشو فيها هذا الداء تتزلزل أركانها، وتصبح آيلة للانهيار والخراب.

كما يعاقب الله على التطفيف في الدنيا، قال رسول الله ﷺ: "يا معشر المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قطُّ حتى يُعلنوا بها إلاّ فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم يُنقصوا المكيال والميزان إلاّ أُخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلاّ مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلاّ سلَّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلاّ جعل الله بأسهم بينهم" (رواه ابن ماجه). ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

أ.د. علي جمعة*

> كلما عظم النجاحُ على يديك، بادر إلى نكران ذاتك، وتذلَّلْ أمام الله، وانكسر بين يديه. ذلك أحرى بك كي لا تنسحق تحت أثقال أنانيتك.
>
> الموازين

حب الجماد من فقه حب الحياة

تقوم العلاقة بين الإنسان والكون على التوافق والانسجام، فمنذ هبط الإنسان إلى الأرض وقد ارتبط تطوره العقلي والحضاري بحسن توافقه وتكيفه مع الآخر من حوله، وحسن استخدامه وانتفاعه بمفردات الحياة.

والمسلم يتعامل مع مخلوقات الله ﷻ من منطلق الشعور بالمساواة معها والمشاركة في العبودية لإله واحد. فهو يتوجه بالحب إلى الله، ومن خلال ذلك الحب يتوجه بالحب إلى ما أبدع وصنع، ولذلك نراه يستوي عنده ضعف المخلوقات وقوتها، حقارتها وعظمتها؛ لأن نظره لا يتعلق بها، بل يتعلق بخالقها القوي الحكيم. فالمسلم يقدِّس من عالم الأشياء المصحف، والكعبة، وقبر النبي محمد ﷺ ونحوها، لمكانتها عند الله ﷻ، وتقديسه لها يجمع بين الاحترام والحب.

ولقد أعطى النبي ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين درسًا في حب الجماد، والتفاعل معه ومجاوبته حينما حنَّ إليه الجذع ومال؛ فعن جابر ﷺ أنه قال: كان المسجد في زمان النبي ﷺ مسقوفًا على جذوع من نخل، فكان النبي

ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر فكان عليه، فسمعت لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، حتى جاءه النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكن. (رواه البخاري)

وعندما مر النبي ﷺ على جبل أحد، وعلى الرغم من أنه كان موطنًا أصاب المسلمين فيه قرح وأصاب النبيَّ جرح، واستشهد عليه عمه حمزة بن عبد المطلب فحزن النبي ﷺ لذلك، إلا أنه أشار إليه وقال: "هذا جبل يحبنا ونحبه" (صحيح البخاري).. فالجبل أحب المسلمين، والمسلمون يحبون هذا الجبل على الرغم من أن ما حدث في موقعة أُحد كان أدعى أن يتشاءم المسلمون منه.

وفي موقف آخر يخاطب النبي ﷺ جبل أُحد ويغمزه برجله حينما اهتز من تحته؛ فعن أنس بن مالك ﷺ قال: صعد النبي ﷺ إلى أُحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم فضربه برجله قال: "اثبت أُحد، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان". (رواه البخاري)

ولم يكن هذا الأمر من التفاعل مع الجماد في البيئة الإنسانية مقصورًا في حياة رسول الله ﷺ بعد بعثته، بل وقبلها؛ فقد قال ﷺ: "إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعث إني لأعرفه الآن" (رواه مسلم). فالنبي ﷺ يذكر أنه لم يتجاهله بعد البعثة، بل ظل يعرفه ويتعلق به، ليس إلا أنه مخلوق لله أحبه وعظَّمه، وكان يسلم عليه قبل بعثته مبشرًا له ومعلمًا بما سيُكلَّف به النبي من تحمل الرسالة وأدائها.

ومثل ذلك، أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تَحَسَّر عنه البيوتُ، ويُفضي إلى شعاب مكة وبُطونِ أوديتها، فلا يمر رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. (رواه البيهقي)

وفي ليلة الجن التي خرج فيها النبي ﷺ مع عبد الله بن مسعود ﷺ، فاجتمع نفر من الجن يستمعون القرآن، ثم انصرفوا إلى قومهم منذرين.. سئل ابن مسعود: مَن أخبر رسول الله بحضورهم، فقال: آذَنَتْه بهم شجرةٌ. (رواه مسلم)

ولقد نبع الماء بين أصابعه الشريفة ﷺ، وسبح الطعام بين يديه فسمعه أصحابه؛ فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كنا نعدّ الآيات بركة، وأنتم تعدّونها تخويفًا، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقلّ الماء فقال: "اطلبوا فضلة من ماء"، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: "حي على الطهور المبارك والبركة من الله"، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. (صحيح البخاري)

وذراع الشاة المطهية تحدَّثت لرسول الله تحذّره من السمّ الذي دسَّته اليهودية فيها؛ فإن يهودية من أهل خيبر سمَّتْ شاة مَصْلِيَّة، ثم أهدتها لرسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله الذراع فأكل منها وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: "ارفعوا أيديكم"، وأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهودية فدعاها، فقال لها" "أسممت هذه الشاة؟" فقالت اليهودية: مَن أخبرك؟ قال: "أخبرتني هذه التي في يدي" وهي الذراع، فقالت: نعم، قال: "فما أردت إلى ذلك؟" قالت: قلت إن كان نبيًّا فلن يضرّه، وإن لم يكن استرحنا منه، فعفا عنها رسول الله ﷺ.

وقد كان التراب سلاحًا ناجعًا استجاب لرسول الله ﷺ في عزوة بدر وغزوة حنين فعشي أعين المشركين؛ فعن ابن عباس ﷺ: أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحِجْر، فتعاقدوا باللات والعزّى ومَناة الثالثة الأخرى ونائلةَ وإسافٍ، لو قد رأينا محمدًا لقمنا إليه مقام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نَقتُله، فأقبلت ابنته فاطمة تبكي حتى دخلت على النبي ﷺ فقالت: هؤلاء الملأ من قومك تعاقدوا عليك، لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا عرف نصيبه من دمك. قال: "يا بُنيَّةُ ائتني وَضوءًا" فتوضأ ثم دخل المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا، وخفضوا أبصارهم، وعفروا في مجالسهم، ولم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم إليه منهم رجل، فأقبل النبي ﷺ حتى قام على رؤوسهم، وأخذ قبضة من التراب وقال: "شاهت الوجوه"، ثم حصبهم بها، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصا حصاة إلا قُتل يوم بدر كافرًا. (رواه الإمام أحمد)

وعن العباس بن عبد المطلب: أخذ رسول الله ﷺ حَصيَات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: "انهزموا ورب محمد"، فما هو إلا أن رماهم بحَصيَاته، فما زلتُ أرى حَدَّهم كليلاً وأَمْرَهم مُدْبرًا. (رواه مسلم)

وقال سلمة بن الأكوع وقد شهد مع رسول الله حنينًا: فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم فقال:

hiragate.com

"شاهت الوجوه"، فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينية ترابًا بتلك القبضة فولوا مدبرين. (رواه مسلم)

ولم يكن تفاعل عالم الجماد مع رسول الله ﷺ مقصورًا على العالم الأرضي، بل والسماوي، فنجد القمر ينشق نصفين معجزة له؛ فإن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر. قال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يعادلها شيء من آيات الأنبياء، لأنه ظهر في ملكوت السماء، والخطب فيه أعظم والبرهان به أظهر، لأنه خارج عن جملة طباع ما في هذا العالم من العناصر.

وقد استجاب الله لنبيه فسخر السماء والسحاب لاستسقائه ﷺ؛ فعن أنس بن مالك ﷺ قال: "أصابت الناس سنة على عهد النبي ﷺ فبينا النبي ﷺ يخطب في يوم جمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ فمُطِرْنا يَومَنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي أو قال غيره، فقال: يا رسول الله، تَهدَّم البناء وغَرِق المال فادع الله لنا، فرفع يديه فقال: "اللهم حَوَالَيْنا ولا عَلَيْنا" فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجَوبَة وسال الوادي قَناةُ شهرًا، ولم يَجِئْ أحد من ناحية إلا حدَّث بالجَوْد. وفي رواية: وخرجنا نمشي في الشمس". (رواه البخاري)

فالجماد له احترامه في تصور المسلم للوجود، وقد تعلقت كثير من العبادات بالمكان والزمان، وأوضح مثال على ذلك حركة المسلم في طوافه حول الكعبة، فإنها حركة تشبه كثيرًا حركة النجوم والأجرام السماوية في أفلاكها حول مركزها، وتشبه أيضًا حركة الإلكترونات في مساراتها حول النواة داخل الذرة، مما يعكس صورة رمزية لوحدة البناء بين أعظم المخلوقات وأدقها، فينطق بأنه سبحانه خالق كل شيء، وأن الكون عبارة عن مسجد كبير اشتركت فيه الكائنات سجودًا وتسبيحًا لخالقها.

والإنسان وجميع الموجودات خاضعون لقانون

الجماد له احترامه في تصور المسلم للوجود، وقد تعلقت كثير من العبادات بالمكان والزمان، والإنسان وجميع الموجودات خاضعون لقانون واحد وسنة واحدة تتحكم في تحركهم، وهذا النظام يعبّر عن وحدة الخالق.

واحد وسنة واحدة تتحكم في تحركهم وسكونهم، وهذا النظام يعبّر عن وحدة الخالق، وتظهر فيه سنن الله في خلقه. فلكل موجود ممكن دورة حياة تبدأ بالوجود ثم النماء ثم الضمور فالموت، وهو أمر يصيب كل شيء من حولنا، سواء في ذلك الجماد والحيوان والإنسان، حتى النجوم والمجرات لها أعمار وآجال، بانتهائه تدخل في دورة حياة كائنات أخرى، وتفقد صورتها الأولى وتتحول إلى صور أخرى متعددة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(الزمر:٢١).

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾(الروم:٥٤).

فالموجودات تتشابه في أطوار التكوين وتتابعها بين الضعف والقوة والنقص والكمال، ولكل موجود أجل وعمر مقدَّر لا يتقدم عليه لحظة ولا يتأخر، ينتهي دوره في الكون بانتهاء أجله.

وكذلك فهناك تشابه في التكاثر بين المخلوقات، حيث خلق ﷻ من كل شيء زوجين متجاذبين تتولد الطاقة أو الحياة من التقائهما، فالحياة كلها تعتبر آية ساطعة على التوحيد، تظهر على وجه الكائنات صغيرها وكبيرها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الذاريات:٤٩). ■

(*) مفتي الديار المصرية السابق.

hiragate.com

خلف أحمد أبو زيد*

المناظرات الفكرية

وإرساء دعائم ثقافة التسامح

من فروع المعرفة وفنون الأدب التي تفرّد بها تراثنا العربي والإسلامي، فرع أسماه الأقدمون "أدب المناظرة"، وهو باب من أبواب العلم، عالج به أسلافنا قضيتين نحتاج إليهما أشد الحاجة في هذا العصر؛ القضية الأولى تحديد منهج الحوار، وتبادل الرأي حول القضايا الخلافية عن طريق وضع عدد من القواعد الموضوعية التي تكفل الوصول بهذا الحوار إلى غايته من تجلية الحقائق، ووزن الاعتبارات المتعارضة، وتمحيص أوجه الخلاف على نحو يمكّن الجماعة في نهاية الحوار من الوصول إلى أفضل الحلول المناسبة لمشاكلها.. والقضية الثانية الاتفاق على عدد من الآداب التي تتصل بالحوار وسلوك أطرافه، صيانة لكرامة المتحاورين، وحفاظًا على الاحترام المتبادل بينهم، بما يشجعهم على مواصلة الحوار وهم آمنون من سهام التجريح،

وقذائف الاتهام بالباطل، الأمر الذي كان له أثره البالغ في ترسيخ منهج المجادلة الفكرية عند المسلمين، وساهم في تجديد فكر الأمة وتفتح الأذهان وتمرين العقول على التفكير السليم، وحسن التأني والبراعة في تناول الموضوع، ومقارعة الحجة بالحجة مع الأخذ بأسباب الثقافة والمعرفة والاطلاع، الأمر الذي أثرى الحياة الفكرية، ودفع بعجلة الحضارة الإسلامية إلى التقدم في ظل هذه الروح الإيجابية الفكرية، التي قامت على إذّكار ثقافة التسامح بين المتحاورين على نحو يخدم قضايا الفكر والإبداع والتجديد بين أبناء الأمة الإسلامية.

بدايات المناظرات في تراثنا الإسلامي

ولو حاولنا البحث عن جذور هذه الظاهرة في حضارتنا الإسلامية وتراثنا العربي، لوجدنا أنها في بادئ الأمر كانت مجالس العلم -مجالس المناظرة والمذاكرة- تعقد في المساجد وما يلحق بها من مدارس. فقد كانت المساجد أكبر معهد للدراسة، ولم تكن فقط للعبادة وحدها، بل كانت معاهد للعلم تجري فيها المناظرات بين العلماء. فقد حكى "المرزباني" في "الموشح": "أن مسلم بن الوليد كان يملي شعره في المسجد، وأن الناس كانوا يتناظرون في المسجد".. ثم حبب ذلك إلى نفوس الخلفاء العباسيين الذين انتبهوا إلى عمق وتأثير هذا الفن النثري الجديد، فلجؤوا لتوظيفه في تجديد فكر الأمة وعقائدها باستقدام العلماء إلى مجالسهم، وانعقاد حلقاتهم العلمية في قصورهم، وحاكاهم في ذلك علية القوم وسائر الأمراء. ومما ورد في ذلك أن الخليفة المهدي بن أبي جعفر المنصور، اتخذ مما كان يعقده للعلماء من مجالس، وسيلة لتحقيق مسائل الدين، التي كان يتجادل فيها المتجادلون للرد على الزنادقة والملحدين، وطلب إلى العلماء أن يناقشوهم في حوارهم بمثل كلامهم من غير الاحتكام إلى القرآن والسنة، لأن الحاج لا ينبغي أن يحتج عليه بما لا يؤمن به، فنشأ من ذلك علم الجدل والمناظرة، وعلم الكلام.

وقد عُرف عن الخليفة المأمون أيضًا، أنه كان مثقفًا واسع الثقافة، يجيد فروعًا كثيرة من العلوم في كلها تناظر؛ فقد روي عنه أنه لما دخل بغداد أمر أن يدخل

كانت المناظرات في الحضارة الإسلامية تحمل بغية واحدة، هي نشر العلم والثقافة في جو ساده التسامح والحوار البناء وروح البحث العلمي الحر الذي كان سببًا في الرقي العلمي وتنشيط الحركة العلمية والفكرية.

حراء

عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم، وجماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته، واختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل، فما زال يختارهم طبقة من طبقة حتى جعل منهم عشرة.

ولقد أثمر هذا الاهتمام من قبل الخلفاء العباسيين بفن المناظرات إلى تسابق العلماء إلى ترجمة علم المنطق، ونقله إلى اللغة العربية، باعتباره أداة البراهين وآلة الفكر الحديث، كما اقتبس العديد من العلماء والأئمة علوم الرياضيات والطبيعيات والإلهيات، واستخدموا وقائعها من البراهين العقلية والأدلة المنطقية في تدعيم حججهم خلال هذه المناظرات التي كانوا يعقدونها فيما بينهم، الأمر الذي أثرى الحركة الفكرية في هذا العصر، وأثمر الحضارة والتقدم العلمي الذي أضاء العالم خلال تلك الحقبة الهامة من عمر الحضارة الإسلامية.

مناظرات خيالية

لقد عني المسلمون عناية كبيرة بهذه الظاهرة الأدبية والفكرية، لدرجة أن بعضهم قد ألف مناظرات خيالية بهدف التدريب على فن المناظرة والمناقشة والحوار، وإعلاء وتشجيع هذه الروح الجديدة، كي تسود بين العلماء والأدباء على النحو الذي يخدم فكر الأمة؛ حيث جرت مناظرات بين أطراف مختلفة من الطبيعتين الصامتة والمتحركة، فألف "الجاحظ" رسالة بعنوان "سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف". ومن هذا القبيل أيضًا، تلك المناظرة التي أوردها "الجاحظ" في مقدمة كتابه "الحيوان" بين صاحب الديك وصاحب الكلب، وكانت غايته من ذلك الرياضة الذهنية، والمحاجة العقلية التي تخدم ما قصد إليه من وراء تلك المناظرات ومن المناظرات الخيالية الطريفة التي عني

hiragate.com

بها الأدباء، وتناقلتها كتب الأدب في العصر المملوكي، وما بعده هذه المناظرة بين السيف والقلم عن ابن نباته المصري وغيره من أدباء ذلك العصر، فقد ورد فيها على لسان السيف أشعار للقدماء تفضِّل السيف على القلم، منها قول أحدهم:

سل السيف عن أصل الفخار وفرعه
فإني رأيت السيف أفصح مقولاً

ومما يرد على لسان القلم في تفضيله على السيف قول ابن الرومي:

كذا قضى الله للأقلام مذ بُرِيتْ
أن السيوف لها مذ أرهفتْ خدمُ

مناظرات حقيقية

لقد كانت هناك مناظرات حقيقية جرت علانية حسب اختصاص كل صاحب علم وفكر، فكان منها الفقهية في المسائل الدينية، وفي النحو والصرف واللغة والأدب.. أخذت فيها ثقافة الحوار كامل بعدها كوسيلة حضارية للاتصال المعرفي بين العلماء والأدباء تبعًا لشغفهم العلمي، ورغبة في الوصول إلى الحق.

وقد حكت لنا كتب الفقه وطبقات الفقهاء مناظرات كثيرة بين أصحاب مالك وأصحاب أبي حنيفة، وبين الفقهاء والمحدثين، وبين الشافعي ومحمد بن الحسن.. حيث كانت هذه المناظرات الفقهية في معظمها تستند على أدلة عقلية، هي السبر والتقسيم والمناسبة والشبه والطرد والدوران وتنقيح المناط وطرق أخرى، والأمر الأهم أنها كانت تجري في ظل ثقافة التسامح، بما تحمل من غايات سامية بين المتحاورين بغية الوصول إلى الحق الذي لا يفسد للود قضية، الأمر الذي أثر في طريقة التفكير والإنتاج الفكري للفقهاء المسلمين. كما حكت لنا كتب النحو بعضًا من المناظرات بين العلماء في النحو واللغة، ولعل من أشهرها تلك المناظرة التي جرت بين "الكسائي" و"سيبويه" في العصر العباسي.. كما كان للمناظرات الشعرية بين الشعراء دور كبير في الارتقاء بالأدب وإزكاء روح المنافسة والحرص على التجويد، الأمر الذي ساهم في إثراء حركة الأدب وازدهارها في هذا العصر.

كما لم يقتصر فن المناظرات على الأدباء والشعراء والفقهاء، بل امتد ليشمل العلماء وأصحاب الاتجاهات الفكرية على اختلافها التي لجأ بعضها إلى إعمال العقل، بينما التزم البعض الآخر بالموروثات والنقل. ويكفينا في هذا الصدد أن نستشهد برأي مؤرخ العلم الشهر "بدبزموند بريال" إذ يقول: "لم يضع الدين الإسلامي منذ البداية قيودًا على الفكر البشري، فعندما ظهر الإسلام لم يكن هناك خطر على من يؤمن بالوثنية أو الفلسفة.. فقد سعى قادة المسلمين عقب القرن الأول لفتوحاتهم سعيًا جادًّا في الحصول على المعارف اليونانية القديمة، وعلى غيرها من الثقافات قدر ما كان القرآن يسمح به". فكثرت مسائل العلم وتشعبت قضاياه، وتطلب ذلك أن يكون للاجتهاد مكانته في نشاط العلماء، وكل مجتهد يحاول أن يظهر رأيه ويدافع عنه حتى يثبت نفسه في ميدان العلم أخذًا وردًّا.. فازدهرت بحور العلم من خلال هذه المناظرات بين أصحاب كل اتجاه علمي ومعرفي، وأصبحت أسس الحوار صلبة تحتمل ما يلقى عليها من رياح فكرية عاتية، الأمر الذي أثرى ملكة الاجتهاد في تعليل الأمور والبحث عن الحقائق، فأثمرت من أعمال العقليات المتفتحة الأفكار مذاهب سياسية ودينية جديدة بواجهات فلسفية ورؤى علمية.

وفي النهاية نقول: لقد كانت هذه المجالس والمناظرات تحمل بغية واحدة، وهدفًا واحدًا هو نشر العلم والثقافة الصحيحة في جو ساده التسامح والحوار البناء وروح البحث العلمي الحر، بعيدًا عن أي تعصب ذميم وفكر مريض، الأمر الذي كان سببًا كبيرًا من أسباب الرقي العلمي الذي حفز العلماء والفقهاء والمفكرين عامة للبحث والنظر، وحملهم في نفس الوقت على الجدِّ في تصفية المسائل المعلقة، حتى يظهروا في هذه المجالس بمظهر الخبير الثقة الدقيق النظر، مما ساهم في تنشيط الحركة العلمية والفكرية، وشجع أربابها من العلماء والمفكرين خلال تلك الحقبة الهامة من تاريخ الحضارة الإسلامية. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

عارف أسَرْ أوغلو*

الحمية المتوازنة

مما لا الشك فيه أن الحمية رأس الدواء، وأن الحمية من أهم الممارسات التي تقي صاحبها من الأمراض.. وثمة أمراض لا تُشفى إلا عن طريق الحمية، ولكن من أجل تطبيق الحمية الصحيحة الواقية من الأمراض، لا بد من أن تراعى الخريطة الوراثية، وكذلك التغذّي وفق طبيعة الجسم وخصائصه.

لا تعني الحمية البقاءَ دون طعام، بل إنها التغذية المتوازنة للجسم وتوفير الطاقة البدنية والروحية له، لذا يجب على المرء ألا يفرّق بين طعام وآخر، بل أن يتناول من كل نوع بقَدَرٍ ويلبي حاجة جسمه إلى الغذاء والطاقة. بمعنى آخر؛ إذا تم التركيز أثناء الحمية على البروتينات

فقط، أو على الدهون، أو على الكربونهيدرات فقط، فإن ذلك يسبب خللاً في الأعضاء مع مرور الزمن. وفي هذا الصدد لا بد من الوقوف على بعض الخصائص التالية المتعلقة بالحمية:

ضبط الحمية وفقًا لطبيعة الجسم

من الخطأ جدًّا أن تُطلَب الحمية من الأشخاص دون الاكتراث بطبيعة جسمهم وبِنيتهم، بل ينبغي أن تُدرَس هذه الطبيعة ويُعرَف مدى تقبُّل بنية الجسم للأغذية وأنواع الطعام. وذلك يدعو إلى تحديد بعض الأمور المتعلقة بالشخص؛ كقابلية الجسم إلى السمنة والزيادة (وراثيًّا)، ودرجة الاكتئاب وتعكُّر المزاج لدى الشخص، وغيرها من الأمور التي تخصّ الطبيعة والفطرة. على سبيل المثال، يجب أن يُطلَب من المعرَّضين إلى الجلطة وراثيًّا، الإكثارُ من تناول الفاكهة والخضار بدل الأطعمة الدسمة والغنية بالدهون والبرتينات. وبالتالي يجب اتباع حمية تساعد على ضبط الوزن، حتى ولو كان مضرًّا للجسم فيجب تناول بعض الأغذية المطلوبة بشكل يسير؛ فمن الخطورة بمكان أن يُطلب من مريض السكري قطْع السكر بالمرة أو تناوله بكثرة.

تحديد الوزن المثالي

يختلف الوزن المثالي من شخص لآخر؛ وذلك وثيق الصلة بالطول، وكمية الدهون في الجسم، ونسبة العضلات، وكثافة العظام.. ولكن تحديد الوزن المثالي ببساطة، يتم بإضافةِ خمسةٍ إلى الرقمين الأخيرين من معدّل الطول أو إنقاصِ خمسة منهما؛ مثلاً، إذا كان طول الإنسان ١,٨٠ سم، نضيف إلى الرقمين الأخيرين خمسة فيصبح ٨٥ أو ننقص خمسة فيصبح ٧٥، وبذلك نتمكَّن من تحديد الوزن المثالي لذاك الإنسان وفق طوله، كما أن الزيادة على الوزن المثالي، يؤدي إلى مرض السمنة ومن ثم إلى أضرار صحية تؤثر سلبًا على حياة صاحبها.

تحديد مؤشر كتلة الجسم

إن ما يُقصَد بالسمنة أو البدانة هو زيادة دهون الجسم عن نسبتها الطبيعية. بمعنى أنه إذا كان الوزن المثالي للشخص ٦٠ كلغ، وكان هو على وزن ٨٠ كلغ، فيمكنه تحديد كمية الدهون ومعرفة نسبة العضلات في العشرين

كيلو الزائد، ذلك بحساب مؤشر كتلة الجسم؛ فإذا كانت نسبة العضلات ٥ كلغ، ونسبة الدهون ١٥ في العشرين كيلو الزائد هنا، فتدعو الضرورة إلى التخلُّص من هذه الدهون الزائدة عن طريق الحمية، لأن نحافة الإنسان تتصل طرديًّا بحرْق الدهون الزائدة في جسمه، أما فقدان الكتلة في العضلات فيؤدي إلى فقدان البروتينات ومن ثم إلى أضرار خطيرة في الجسم، أيْ عملية تخفيف الوزن يجب ألاّ تؤثر على فقدان في البروتنات.

الاهتمام بمعدّل الأيض الأساسي

معدّل الأيض أو الاستقلاب الأساسي، هو الطاقة التي يحتاجها الجسم خلال ٢٤ ليستعيد نشاطه وحيويته الطبيعية من جديد. ويتغير هذا المعدّل وفقًا للبنيتَين الفيزيولوجية والكيميائية الحيوية. ولا بد من الإشارة في هذا الباب، إلى أن الكبد يستخدم نسبة ٣٠٪ من الأيض الأساسي، والدماغ يستخدم ١٩٪، والهيكل العظمي ١٨٪. هذا وإن ارتفاع نسبة العضلات في مؤشر كتلة الجسم، يؤدي بشكل مباشر إلى ارتفاع معدّل الأيض الأساسي عند الإنسان، فكلما انخفض حَرْق السعرات الحرارية في الأيض الأساسي كلما خفَّ الوزن،

hiragate.com

وبالمقابل، إذا ازدادت نسبة حرْق السعرات الحرارية في الأيض الأساسي، ازداد الوزن.. كما أن الذين يتمتعون بأيض أساسي سريع ينحفون بسهولة، ووفقًا لهذه السرعة يتم حساب معدل السعرات الحرارية.

مراعاة الظروف المناخية

لا شك أن الظروف المناخية تؤثر بشكل مباشر على الأعضاء وعملية الأيض لدى الإنسان؛ إذ تتغير حاجته إلى الطاقة مع تغير المناخ، وتزداد حاجة الجسم إلى السعرات الحرارية تبعًا لانخفاض الحرارة الخارجية. فسوء الغذاء لدى الأطفال في سيبيريا -مثلاً- يؤدي إلى أمراض كثيرة في المعدة والأمعاء، وقد أظهرت الدراسات أن الأغذية التي تُتناول وفقًا لنسبة السعرات الحرارية المستهلَكة التي تتغير مع تغيرات الظروف المناخية، تقلِّل من الأمراض التي يتعرّض لها أبناء هذه المناطق الباردة. والملفت للنظر أنه بالرغم من إكثار الأطعمة الدهنية والغنية بالبروتينات لدى مَن يعيش في المناطق القطبية، فإن نسبة أمراض القلب والأوعية الدموية قليلة جدًّا مقارنةً بالمنطاق الأخرى.

مراعاة العمر ونوع الجنس

بيَّنت الدراسات العلمية أن سوء التغذية عند كبار السن والحمية بهدف إنقاص الوزن، يؤدي إلى التهاب المسالك البولية، كما أن سوء التغذية عند الأطفال البُدُن تحت الخامسة من العمر، وإخضاعهم لحمية بأغذية منخفضة السعرات الحرارية مدة طويلة، يعرِّضهم إلى الالتهاب الرئوي، وانخفاض ضغط الدم، ونقص الكلسيوم، وكذلك إلى تورّم في البطن.. كما أنه في حال الاستمرار على التغذية غير المتوازنة، وعلى الحمية القليلة الطاقة، يَحدث عند الطفل تدهور في النخاع العظمي، ونقص في الزلال والبروتينات، انخفاض في حديد مصل الدم، نقص تَنسُّج أو نقص نموٍّ في الكريات الحمراء.. لذا، أثناء الحمية بالأغذية منخفضة السعرات لدى الأطفال، يجب أن يزوَّد الكربوهيدرات بالمغذيات الدقيقة (فيتامين الثيامين، حمض الفوليك، فيتامينات A,C,E,K، الحديد) التي تلعب دورًا كبيرًا في بناء العقل والعظام والجسم للإنسان. وبالتالي يؤكد الأخصائيون على أن تتم العناية بتوازن المواد الأساسية في الجسم عند الحمية طويلة الأمد عند الأطفال والمسنِّين.

التغذية المتوازنة

عندما تكون التغذية غير متوازنة، فإن ذلك يؤدي إلى اختلال في أداء الأعضاء، وإلى إصابتها بأمراض عديدة. فهناك حمية "البروتين" الزائد التي نختارها عادة لإحراق الدهون في الجسم، لكنها قد تضر بمرضى السكري، وتتسبب في بعض المشاكل في شرايين القلب والكلى، بسبب الاختلال الذي يصاب به نظام الكاربوهيدرات والدهنيات عندهم. فمثلاً، إن المرضى الذين ينقصون من وزنهم عبر حميات عالية البروتينات وهم في حالة انقطاع الطمث، تنخفض كثافة العظم لديهم بنسبة كبيرة بسبب اختلال التوازن ما بين البروتين والصوديوم

hiragate.com

والكالسيوم والبوتاسيوم، وذلك يؤدي إلى هشاشة العظام وتعرضهم لحالات كسر بصورة ملحوظة. والجدير بالذكر أن الحميات التي تكتفي بنوع واحد من الغذاء، تؤدي في الغالب إلى أمراض عديدة. إن الحميات ذات البروتينات المتوسطة القريبة من سقف الارتفاع، تؤدي إلى ارتباك في أنظمة الأيض في الجسم، وترفع من نسبة احتمال التعرض لمخاطر حمية من النوع ٢. ومن ثم فإن الأوفق لهؤلاء، هي الحميات ذات الدهون الخفيفة والكاربوهيدرات المرتفعة. إن اختيار الحميات المختلطة لم يقلل من خطورة الإصابة بسرطان القولون. وفي هذا الباب ينبغي اختيار الأغذية الليفية من أجل الإقلال من خطورة الإصابة بسرطان القولون.

الجمع المذموم

أحيانًا نتناول في وجبة واحدة طعامين من كاربوهيدرات أو طعامين بروتينيين أو دهنيين، بل أحيانًا نجمع ثلاث مأكولات من نفس الصنف في وجبة واحدة ودون أن ننتبه إلى الكمية، بيد أننا عندما ندرس النبي ﷺ في مأكله ومشربه، نجد أنه لم يأكل الحليب مع الحامض، ولا الحليب مع اللحم، ولا الحليب مع البيض، ولم يجمع بين طعامين ساخنين ولا بين طعامين باردين، ولا بين طعامين مسببين إمساكًا أو إسهالاً، ولا بين المقلي والمجفف، ولا بين المجفف والطري، ولا طعامًا بقي من المساء فتم تسخينه، ولا يميل إلى المشهّيات ولا الأطعمة التي طبخت بالخل وفسد طعمها كما يقول ابن القيم. وكان النبي ﷺ لا يفضل الطعام الحار، فيقول: "أبردوا بالطعام، فإن الحار لا بركة فيه".

أوقات الطعام

إن موعد الجوع ليس الوقت الذي اعتاد الإنسان عليه بيولوجيًّا، لكنه اللحظة التي تبدأ فيها التشنّجات في المعدة. هذا الحراك الذي يبدأ في لحظة الجوع في المعدة ينتهي بعد ١٨-٢٤ دقيقة من تناول الطعام. ولا يمكن أن نسمي الجوع جوعًا إلا في تلك اللحظات. وإذا امتد الوقت بحالة الجوع ولا سيما أثناء الحمية أو ظروف الحرب، فإن الجسم يفرز هورمونات مثل "إنوسيلين" و"جلوكاجون" و"لبتين" و"جريلين" من أجل الحفاظ على توازن سكر الدم. يشعر الإنسان بالجوع الخفيف قبل أن يظهر الشبع التام، وذلك يحصل عندما نقوم من المائدة قبل أن نملأ المعدة. الجوع الخفيف يساعد الذاكرة على أن تحافظ على أدائها لمدة طويلة، كما ترتفع أثناءه سرعة حركة الجزئيات في الجسم.

لا بد من التنبيه إلى شيء في غاية الأهمية في تعيين مواعيد الطعام؛ ينبغي اختيار المواعيد الفيسيولوجية في تحديد الوجبات وليس ما تمليه علينا العادة. إن الأغذية التي تمدنا بالطاقة مثل الكاربوهيدرات والبروتين والدهون، تنفذ إلى جسم الخلية بعد تناولها بمدة وجيزة. وإن الدهون هي آخر الأغذية اندماجًا وذوبانًا في بنية الخلية، حيث يستغرق ذلك ثماني ساعات، ومن ثم ينبغي أن تكون المدة بين الوجبة والأخرى ثماني ساعات على الأقل؛ منعًا للخلية من تخزينها تلك الدهون. من هنا يمكننا أن نقول إن المرء الذي يمضي ثماني ساعات نومًا، يكفيه أن يتناول في اليوم وجبتين فقط، لذا الأنسب أن تكون المدة بين وجبة وأخرى ثماني ساعات.

مدة الطعام

لقد أُجريت دراسات حول الأطفال المصابين بالسمنة الزائدة، بدءًا من حالة الجوع عندهم إلى طريقة التغذية، إلى سرعة الأكل -وعلاقة ذلك كله بزيادة الوزن- فتبين

hiragate.com

أن الشعور بالجوع وسرعة التهام الطعام عندهم زائد على الأطفال العاديين بأربعة أضعاف، لذلك يأكلون كثيرًا، وتستغرق فترة هدوء شعور الجوع لديهم مدة أطول. جدير بالذكر أن الطعام إذا تم مضغه في الفم بعد تناوله مدة طويلة، ولم تكن مدة الطعام أقل من ثلاثين دقيقة، فإن مركز الشبع في الدماغ سيؤشر على حس الشبع بعد ثلاثين دقيقة تحديدًا.

كمية الطعام

إن حجم معدة عادية هو في حدود ١٠٠٠-١٥٠٠ سم مكعب. ينبغي أثناء الطعام ترك مساحة فراغ في المعدة تتيح لها تدوير المأكولات وخلطها، كما تتيح لها إمكانية دفع خليط الأغذية نحو مِعَى الإثني عشري. لذا ينبغي ملء ثلثي المعدة بالطعام والماء، وترك الثلث المتبقي فارغًا لتمكين المعدة من خلطها للمأكولات، كما ينبغي ألا تتجاوز نسبة الطعام مع الماء ٧٠٠-١٠٠٠ سم مكعب.

تدريبات رياضية

إن التدريبات الرياضية ترفع من عدد "الميتوكوندري" في خلايا العضلات فتقوّيها، فتزداد سرعة التفاعلات البيوكيمياوية في الجسم، وهو ما يسهل طرح المواد الزائدة إلى الخارج ومن ثم يؤدي إلى تخفيف الوزن، ولكن إن لوحظ في بيوكيمياء الجسم مؤشرات غير عادية، فلا ينصح بممارسة الرياضة. إن نسبة الطاقة التي تستهلكها كل عضلة تختلف عن الأخرى، وإن استهلاك الطاقة مرتبط بحركة العضلة، وإن الطاقة التي تنفقها عضلات الساقين تختلف عن العضلات التي تتحرك أقل منها.. أثناء ممارسة الرياضة ينبغي ألا نتحامل على العضلات ولا نثقل عليها بدافع الحماس، بل ينبغي أن نراعي حالة ألياف العضلات، فنبدأ الرياضة ببطء ونزيد من كثافتها وسرعتها بالتدريج.

استهلاك الماء

إن استرجاع المياه التي تُستَهلك أثناء اليوم بسبب نشاط الجسم أو العرق، في غاية الأهمية والضرورة، وإن نسبة السوائل التي نستهلكها في حدود ١٨٠٠-٢٠٠٠ سم مكعب ما عدا السوائل التي نستهلكها عبر الممارسة الرياضية.

لا شك أن الصحة مهمة، ولا شك أن الحمية مهمة كذلك في الحفاظ على الصحة، لكن علينا ألا ننسى أن الملابس التي نرتديها حسب اختلاف المواسم، والمنزل الذي نقيم فيه، والبيئة والتعليم والعادات الثقافية، لا تقل أهمية عن الحمية في الحفاظ على الصحة. وإن أغلب الأخطاء تعود إلى الفهوم الخاطئة التي تقبع في عاداتنا وثقافتنا، فلسنا مسؤولين عما نأكله في الضيافة مثلاً، ثم ها هو صاحب الضيافة يلح ويلح على أن نزيد من الأكل وننوع إكرامًا له ولمن صنع الطعام، ما باليد من حيلة، كل ذلك يسهم في ارتفاع الوزن، وبالتالي يزيد من خطورة التعرض لأمراض شتى نتيجة السمنة.

في الحقيقة لو التزمنا بوصية الرسول ﷺ وملأنا ثلث المعدة بالطعام، والثلث الثاني بالماء، وتركناه الثالث فارغًا، وغادرنا المائدة قبل أن نشبع، ولم نجلس إلى الطعام قبل أن نجوع.. أجل لو التزمنا بهذه الوصايا، فسوف تُحلّ كثير من المشاكل الصحية تلقائيًا. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

hiragate.com

د. يحيى وزيري*

النظرية الفردوسية في العمارة الإسلامية

كان للتصوير القرآني للفردوس، ووصف العديد من الأحاديث النبوية للجنة بما تحويه من متع حسية وروحية، إلى جانب محاولة التغلب على الظروف البيئية القاسية، الدافعُ القوي لدى المسلمين لمحاكاة هذا التصوير المثالي في تصميم وتنسيق الحدائق الإسلامية. فالحدائق بصفة عامة تعكس العلاقة بين الإنسان والطبيعة، أما في العالم الإسلامي فتضاف رؤية أخرى لمفهوم الحدائق على أنها صورة مصغرة ونسخة مقلدة للفردوس أو الجنة.

وتميزت العمارة الإسلامية بما يمكن أن نطلق عليه "النظرية الفردوسية" أو "نظرية التضاد البيئي"، في محاولة لإيجاد الحدائق والجنات الأرضية في داخل بيئة تتسم بظروف مناخية قاسية، بغرض تحسين وتجميل هذه البيئة. لقد كان أهم ما يميز الحديقة في العصر الإسلامي "الخصوصية"؛ لذلك أحيطت بالأسوار العالية أو أشجار النخيل لحجب المناظر الداخلية، وغلب على تخطيطها التقسيمات الهندسية، كما اهتم المسلمون باستخدام المياه في حدائقهم بصور متنوعة ومتميزة. ومع نمو الفنون والعمارة الإسلامية وتطورها، أصبح الاتجاه في تصميم الحدائق يقترب -بقدر الإمكان- من الوصف القرآني للجنة أو الفردوس؛ فتنسيق الحدائق في رؤية الإنسان المسلم ما هي إلا صورة مصغرة للفردوس العلوي أو الجنة، ومحاولة لمحاكاة صنع الله، مما يرى في الطبيعة المحيطة، أو الآيات المنظورة التي تعكس عظمة الإبداع الإلهي.

إن المتأمل في العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عن الجنات الأرضية أو الأخروية، ليندهش من دقة الوصف القرآني، والذي استلهم من خلاله المسلمون العناصر الأساسية والجمالية عند تنسيق حدائقهم أو عند اختيار مواقعها.

فمن الآيات الكريمة التي أوضحت الموضع النموذجي لاختيار الحدائق والجنات الأرضية، نجد قوله ﷻ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ

وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(البقرة:٢٦٥)؛ فالآية الكريمة أوضحت أن الموقع الأمثل لاختيار الحدائق والبساتين يكون بالأماكن المرتفعة من الأرض كالروابي مثلاً، فهذا يجنب الأشجار عدة عوامل معوقة للنمو والإثمار الجيد وأسباب المرض، ومن هذه العوامل التقاء الجذور بالمياه الجوفية الذي يحد من نموها ويمنع تعفن الجذور، كما أن المياه الزائدة لن تفسد الزرع؛ لأنه بربوة عالية والصرف ممتاز حول الربوة، وفي حالة عدم نزول الأمطار فإن هذه الحدائق تروى بطريقة الرش والرذاذ الخفيف للندى.

ويلاحظ أن المعنى اللغوي للفظ "الحديقة" يتفق مع ما ورد في الآية السابقة؛ فـ"الحدائق" جمع حديقة وهي البساتين أو الروضة أو الحائط، وعادة ما يطلق لفظ "الحديقة" على الأرض المرتفعة المزروعة بالشجر والتمر والنخل. أما "الروضة" فهي الأرض ذات الخضرة، ولا يقال في موضع الشجر "روضة"، ولا تكون إلا بماء معها أو إلى جنبها. و"الحائط" هو البستان

تميزت العمارة الإسلامية بما يمكن أن نطلق عليه النظرية الفردوسية، في محاولة لإيجاد الحدائق والجنات الأرضية في داخل بيئة تتسم بظروف مناخية قاسية، بغرض تحسين وتجميل هذه البيئة.

من النخيل إذا كان عليه حائط. و"البستان" لفظة فارسية الأصل تعني "مكان العطر"، وأطلقت على كل أرض أدير عليها جدار وفيها شجر وزرع.

وعلى ذلك، فإن لفظ "الحديقة" عادة ما يطلق على الأرض المرتفعة المزروعة بالأشجار والنباتات، وهو ما يتفق مع ما أشارت إليه الآية الكريمة السابقة، ومن خلال التصوير القرآني للجنات والحدائق سواء كانت أرضية أو أُخروية، يمكن أن نستلهم العناصر الأساسية والجمالية لتصميم الحديقة بأفضلية اختيار الحدائق بالأماكن المرتفعة كالروابي على سبيل المثال، بصفة عامة والإسلامية منها بصفة خاصة، وبلورة هذا التصور من خلال العلوم المعمارية والبيئية المعروفة، ويمكن إيجاز عناصر الحديقة الإسلامية بناء على ذلك كما يلي:

الأشجار والنباتات

استخدمت الأشجار والنباتات في الحديقة الإسلامية لإيجاد الظلال والحصول على المتعة البصرية، ولقد أعطيت العديد من الآيات القرآنية وصفًا جميلاً للجنة وما بها من متع أعدها الله لعباده الصالحين، حيث يقول ﷻ: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۞ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۞ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ۞ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ۞ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ۞ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۞ لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾(الواقعة:٢٧-٣٣)، ويقول تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾(الإنسان:١٤).. فوجود الأشجار والنباتات بالحدائق، يؤدي إلى منافع شتى؛ فيمكن الحصول على الفواكه من بعض أشجارها كالعنب مثلاً، والبعض الآخر يستخدم كسور يحمي الحديقة من أعين المتطفلين ويوفر لها الخصوصية كأشجار النخيل، والبعض الآخر يوفر الظلال ويساعد على عدم سقوط أشعة الشمس على حوائط

هـذه المباني ويحد من شدة الإبهار بالمنطقة المحيطة بالمباني.. هـذا إلى جانب الحصـول على المتعة البصرية وتحقيق الجوانب الجمالية.

وقـد بلـغ اهتمام المسـلمين بتحقيق الجانب الجمالي في الحدائـق، إلـى أنهـم قـد أحاطـوا فـي بعـض الأحيان جـذوع الأشـجار برقائـق الذهـب؛ ويروى عـن "خمارويه ابن أحمد بن طولون" أنه كان يعتني بحدائق القصر الذي أنشـأه، فكسـى جـذوع النخيـل بالنحاس المذهـب. وكأن المسلمين قد استلهموا هذا الأسلوب من حديث الرسول عليـه الصـلاة والسـلام والـذي ورد فـي جامـع الترمذي، حيث يقول: "ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب".

الاستخدامات المتنوعة للماء

المـاء يرمـز في الرؤية الإسـلامية إلى أصل الحياة، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء:٣٠)، كما أنه رمز للتطهر والصفاء.

ولقـد جـاء اسـتخدام المـاء فـي الحديقـة الإسـلامية بصور متنوعة؛ فقد اسـتخدم على شـكل مسطحات مائية مظللـة بالأشـجار، أو علـى شـكل نوافيـر تسـاعد علـى تحريك سـطح الماء فلا يعمل كسـطح عاكس، أو على شـكل أنابيـب علويـة تتسـاقط منهـا المياه محدثـة خريرًا مقبـولاً، أو علـى شـكل سلسـبيل.. كمـا أن المسـلمين اسـتخدموا الفسيفسـاء الملونـة في تكسـية قـاع وجوانب النوافيـر أو القنـوات المائيـة، وذلـك لإبراز جمـال الماء والمحافظة على صفاء لونه بقدر الإمكان.

وجدير بالذكر أن بعض أحواض الماء كانت تحتوي علـى بعـض الأسـماك والطيور كالبطّ، كمـا تحتوي على نوافيـر حتـى لا تسـمح بتواجـد الحشـرات علـى سـطح الماء، إلى جانب تأديتها لوظائف بصرية وسمعية أخرى.

وإذا كانت معظم بلدان العالم الإسلامي تقـع جغرافيًّا في مناطق صحراوية وجافة، فقد تمكن المصمم المسلم مـن التغلـب علـى هـذه المشـكلات المناخية باسـتخدام المـاء كعنصـر تصميمي أساسـي في الحديقة الإسـلامية من خلال الأساليب التالية:

• وضـع النافـورات والمسـطحات المائيـة فـي أفنية داخليـة محاطة بسـور عال أو مبان مـن جميـع الجهات، ممـا يوفـر حمايـة مـن الريـاح القويـة المتربة الحـارة مـع إيجـاد علاقـة بصرية قويـة مـع المشـاهد، ويختلف ذلك اختلافًـا جذريًّـا عن الحضـارة الأوروبية فـي فترة ما بعد النهضـة؛ حيـث إن تلـك الحضـارات كانـت تميـل إلـى الاسـتعراض وإظهـار القـوة والبـذخ، بينما كانت فلسـفة الحضارة الإسـلامية في اسـتعمال المياه مرتبطة بجوانب وظيفية، وبالاستمتاع الحسي والروحي.

• الحماية من الشمس بواسطة نباتات محيطة بمجرى المـاء وضيـق القنوات التي يتحرك فيها المـاء، مما يقلل معدل البخر وفقدان الماء، ويعطى انعكاسات جميلة.

• تقليـل حجم الماء المسـتعمل مـع المحافظة على نفس مسطح الماء الظاهر بتصميم قناة الماء على شكل نصف بيضاوي أو على شكل زهرة اللوتس.

• اسـتخدام رذاذ المـاء الرفيـع المندفع بقوة (Water Jets) مما يعطى إحساسًا جميلاً وصوتًا رقيقًا مـع ترطيب الجو بأقل كمية ماء ممكنة.

• عـدم إهـدار الميـاه المنصرفـة مـن المسـطحات المائية، وذلك بإعادة اسـتخدامها في الري، كما في فناء البرتقال بمسجد أشبيلية.

لقد جاء اسـتخدام الماء في الحدائق الإسـلامية على درجـة عاليـة مـن الرقـي التصميمي، سـواء مـن النواحي الجماليـة أو لتحقيـق حلـول مناخيـة لتلطيـف الجـو مـع اسـتخدام أقل قدر ممكن من الماء، وهو ما يتمشـى مـع تعاليم الإسـلام والتي تحارب التبذير والإسراف في كل شيء، فما بالنا بالماء وهو أصل الحياة.

المجالس المظللة والمكشوفة

لقـد تـم تزويد الحدائق الإسـلامية بالأرائـك والمجالس التـي كانـت غالبًـا مـا تختـار بالقـرب مـن النباتـات والمسـطحات المائيـة للاسـتمتاع بهـا عـن قـرب، ولقـد تحـدث القـرآن الكريـم عـن المجالس فـي الجنة، حيث يقـول ﷻ: ﴿إِنَّ الأَبْـرَارَ لَفِي نَعِيـمٍ ۞ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾(المطففين:٢٢-٢٣). لقد كانت تستعمل المجالس المكشـوفة، من الخشـب أو الحجر أو المكسـوة بالبلاط القيشـاني الملون، كما كانت تسـتعمل الأكشاك الخشبية كمجالـس مظللـة -حيث المناخ حار والشـمس سـاطعة

hiragate.com

أغلب النهار- وكان لها فتحات صغيرة بجدرانها تمكن الجالس بداخلها من مشاهدة ما يجري خارجها.

ومن الأمثلة المعاصرة أنه تم استخدام الخيام في منتزه "السويدي" بمدينة الرياض كمناطق للجلوس، وكأن المصمم قد استلهم ذلك من وصف الرسول عليه الصلاة والسلام: "إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا"، وهذه الخيام على شواطئ الأنهار في حدائق الجنة.

الروائح الزكية والأصوات الجميلة

تعتبر الروائح الزكية أحد العناصر الهامة لإدخال البهجة والسرور والإمتاع الحسي عن طريق حاسة الشم، ويخبر القرآن الكريم والأحاديث النبوية بأن الجنة لها رائحة زكية فيقول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾(الواقعة:٨٨-٨٩). كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "إن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام" (رواه الطبراني). لذلك فقد روعي في النباتات المستعملة في الحديقة الإسلامية أن تكون ذات رائحة جميلة، أو أزهار فواحة العطر، أو فواكه ذات رائحة زكية، مما يكسب البناء رائحة طيبة بشكل دائم وهذا يضيف بُعدًا جديدًا للاستمتاع الحسي.

أما الأصوات الجميلة فلها تأثيرات سمعية تدخل على النفس الهدوء والسكينة، مع تلافي الضوضاء والأصوات المزعجة، وهو ما يشير إليه قول الله سبحانه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً﴾(الغاشية:١٠-١١)، فأصوات النوافير وخرير مياهها، وزقزقة الطيور المختبئة في أشجار الحديقة والمتداخلة مع الأصوات الإنسانية داخل الحديقة، يكتمل اللحن الخاص بالمبنى.

استخدام الخط والكتابات العربية

جاء استخدام الكتابة العربية بالخصوص المختلفة (كوفي أو ثلث) لكتابة الآيات القرآنية في أجزاء كثيرة من الحديقة الإسلامية خاصة على أبوابها، تيمّنًا وتذكيرًا بنعم الله وبفضله، ومن الجائز أن المسلمين قد استلهموا هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ﴾(الكهف:٣٩).

إلى جانب الأحاديث النبوية التي أخبرت بأنه مكتوب

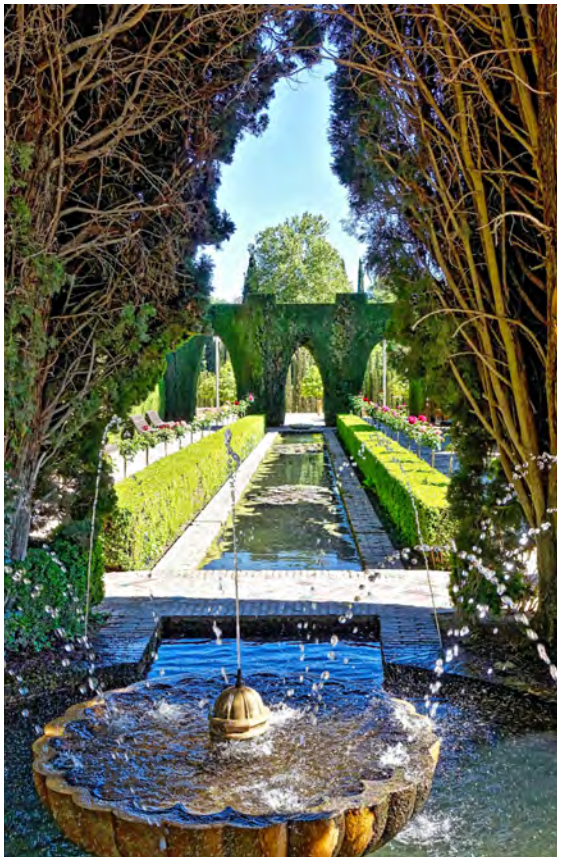

على باب الجنة "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

ومن نماذج الآيات والكتابات التي استخدمت في الحدائق ما يلي:

"لا اله إلا الله"، "الله الواحد الأحد"، "ما شاء الله"، "ولا غالب إلا الله"، إن ينصركم الله فلا غالب لكم".. وفي مداخل الحديقة "ادخلوها بسلام آمنين"، "جنات تجري من تحتها الأنهار".. وللاستعاذ بالله من الحاسدين كتب "يا حفيظ"، "والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين".. وكلها تعبّر عن الإيمان العميق بالله.

وفي ساحة فناء "الريحان" بقصر الحمراء بغرناطة، فإن الداخل يجد كلمات تبرق على الجدران، مثل "السعادة"، و"البركة"، و"الازدهار"، و"الصحة الباقية"، و"الحمد لله على نعمة الإسلام".

مما سبق يتضح أن العناصر الأساسية للحديقة الإسلامية قد استلهمت من معاني بعض آيات القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تصف الفردوس، وهو ما أكد عليه "جون أدي" بقوله: "لقد كانت الحديقة عند المسلمين، هي تصوير للجنة أو الفردوس في الدار الآخرة". ■

(*) كلية الآثار، جامعة القاهرة / مصر.

hiragate.com

د. جيل كارول*

بين كهف أفلاطون وحكمة كولن

يصف أفلاطون الفرق بين الفلاسفة والعامة في الجزء السابع من كتابه "الجمهورية" من خلال قصة الكهف الشهيرة، حيث يطلب منا سقراط أن نتخيل أناسًا يعيشون في كهف منذ طفولتهم وهُمْ في وَضْعٍ بحيث لا يرون أمامهم سوى جدار الكهف، ولا يعرفون أن وراءهم ممرًّا طويلاً يقود إلى خارج الكهف، ويوجد خلفهم ضوء ساطع يجعل ظلال الأشياء مِن خلفهم تسقط على الجدار أمامهم. ويعيش هؤلاء الأشخاص حياتهم وهم ينظرون إلى الحائط، ويتعاملون مع الظلال الساقطة على الجدار كما لو كانت أجسامًا حقيقية، ولا يدركون أنها ليست في حقيقتها سوى ظلال أو صور للأجسام الحقيقية. وعندما يسمعون أصداء الأصوات تتردد داخل الكهف، يعتقدون أن الظلال هي التي تصدر تلك الأصوات، وتبدأ عقولهم في نسج

قصص حول تلك الظلال، ويصبح لها معنى لديهم، فهذه الظلال هي "الحقيقة" بالنسبة لهم.

الخروج من الكهف

وذات مرة، تمكّن أحد هؤلاء الأشخاص -بشكل أو بآخر- من التحرر من هذا الوضع الثابت، واستدار ليرى ذلك الضوء الساطع والظلال التي يكوّنها، والممر الذي يمتد لأعلى إلى خارج الكهف حيث يوجد نور أكثر سطوعًا، فقطع الممر والنورُ يؤلم عينيه حتى خرج من الكهف إلى ضوء النهار، إلى العالم "الحقيقي".. ولم يستطع في البداية رؤية السطوع الكامل للحقيقة؛ فلا بد أن تعتاد عيناه عليها بالممارسة، إلا أنه في النهاية أصبح يرى كل شيء بوضوح، فعاد إلى الكهف ليخبر الآخرين بالظلام الذي يقبعون فيه والنور الذي يُمْكنهم الحصول عليه إذا تحرروا وتركوا تلك الظلال ومشوا عبر الممر إلى النور، فسخروا منه وتشاجروا معه، حتى قرروا قتله في النهاية بسبب أفكاره التي تبدو سخيفة للغاية ولا تمت بصلة للحقيقة.

والشاهد في القصة واضح، وهو أن عددًا محدودًا من الناس هم الذين سيوجهون شخصياتهم بالكامل صوب نور الحكمة والحقيقة، ويهبون أنفسهم للبحث عنه رغم كل المصاعب، أما الأغلبية فسوف يفضلون كهف الظلام ويقضون حياتهم مشغولين بالأعمال اليسيرة والهينة التي تنتمي إلى عالم الظلال.

النور الساطع

يقول فتح الله كولن: "نؤكد أن هذه القوة كامنة بالفعل في روح الجميع. فالطريقة التي يتعلم بها كلٌّ منا تشبه ما يحدث للعين؛ فهي لا تستطيع الانتقال من الظلام إلى النور من دون نقل الجسم بأكمله، لذا فإن المرء -من خلال قدرته على المعرفة إضافة إلى روحه بأكملها- ينبغي أن يحوّل وجهته من عالم الأشياء المؤقتة والزائلة إلى عالم الوجود الأزلي الدائم، إلى أن يتعلم في النهاية تحمُّل رؤية أكثر الأشياء سطوعًا في ذلك العالم. وهذا هو ما نسميه "الخير" أليس كذلك؟".

إذن، صحيح أن القدرة على الحياة بحب الحكمة

فتح الله كولن ينادي بالكرامة الإنسانية والقيمة الأخلاقية المتأصلة في إطار النظام الفلسفي الديني للإسلام، والذين يعيشون غافلين عن تلك القيمة وذلك الوعد -أو مستخِفّين بهما- يختارون أن يعيشوا حياة أدنى من الحياة الإنسانية.

موجودة فينا جميعًا، إلا أن القليلين هم مَن يفعِّلون هذه القدرة الداخلية في حياتهم. وتحقيق ذلك يتضمن توجه الفرد بكل كيانه نحو "الحقيقة المطلقة" ومقاومة إغراء المتع الزائلة التي تكون في أحسن الأحوال مجرد صور لتلك الحقيقة. ويتفق أفلاطون مع كونفوشيوس في وجود نوعين أساسيين من الناس في هذا العالم: الأعمى، والبصير.

الإنسان المثالي

وبعد أفلاطون وكونفوشيوس، يأتي كولن ليحدد خصائص البشر المثاليين التي تميزهم عن القطاع العريض من الناس العاديين. وقد أعطى كولن في أعماله، أسماء عديدة للأفراد الذين يُعتَبَرون مثالاً للكمال الإنساني، منها "ورثة الأرض" و"الأجيال المثالية" و"الإنسان المثالي".. وأيًّا كانت التسمية، فهؤلاء الناس يشتركون في سمات واضحة تميزهم تمامًا عن الناس الآخرين.

ويرى كولن أن التجديد والنهضة سيَحدثان في العالم بشكل عام -وفي تركيا بشكل خاص- عندما يتقدم هؤلاء الناس المثاليون روحيًّا وأخلاقيًّا وفكريًّا لقيادة الإنسانية إلى عصر جديد، من خلال ما يقدّمونه من خدمات وأيضًا ما يمثّلونه من قدوة في حياتهم الخاصة. وبدون هؤلاء الناس سيستمر المجتمع في التخبّط وسط بحر من الشهوات والأيديولوجيات الانتهازية، ولن يَسْمُوَ الناس في مجتمع كهذا إلى مستوى يجعلهم يستحقون صفة "الإنسانية".

إنسان الحكمة

يقول كولن: بعض الناس يعيشون دون تفكير، بينما البعض الآخر يفكرون ولكنهم لا يستطيعون وضع أفكارهم حيز التنفيذ. (...) ومَن يعيشون دون تفكير

hiragate.com

يكونون مادة لفلسفات الآخرين، وهم يتنقلون دائمًا من نمط إلى نمط ولا يفتأون يبدلون قوالبهم وصورهم ويقضون حياتهم في سباق محموم من الانحرافات في الأفكار والمشاعر، والاضطرابات في الشخصية، وهم ممسوخون بصورهم أو أرواحهم، وليس بمقدورهم أن يرجعوا إلى ذواتهم. (...) هؤلاء يُشْبهون دائمًا بِركة ماء راكد آسن منتن، فبدلاً من يبعثوا الحياة فيما حولهم، يصبحون أشبه بمستعمرة للفيروسات أو مأوى للجراثيم".

هذه هي كلمات كولن، ولكنها يمكن بسهولة أن تكون كلمات أفلاطون أو كونفوشيوس أيضًا؛ فـ"كولن" هنا يفعل ما سبقه إليه زميلاه في المحاورة من تحديد نوعين من الناس في هذا العالم، وهم المثاليون -أو من يدركون ما هو مثالي ويسْعون إليه- والدنيويون. وما يشترك فيه الدنيويون هو أنهم -عند مستوى معين- ينسون أنهم أناس لهم قيمة. ويكمل كولن فيقول:

"ويبلغ من ضحالة أفكار هؤلاء الناس وسطحية آرائهم أنهم يقلدون كل ما يرون أو يسمعون -تمامًا كالأطفال- يسيرون كالإمّعات هنا وهناك وراء الجموع، ولا يجدون أية فرصة للإنصات إلى أنفسهم أو محاولة التعرف على قيمتهم، بل إنهم لا يدركون أصلاً أن لديهم قيمة تميزهم عن غيرهم، فيقضون حياتهم كعبيد للجسد، عبيد لا يرضون بالتحرر من أحاسيسهم الجسدية، ويجدون أنفسهم -بوعي أو بدون وعي- عالقين في واحد أو أكثر من تلك الفخاخ القاتلة، ويَذبحون أرواحهم مرة بعد مرة في أكثر أشكال الموت بؤسا".

بين متعة الجسد ونشوة الروح

وكما هو الحال مع سكان الكهف في قصة أفلاطون، فإن الدنيويين -حسب رأي كولن- يعيشون حياة متمركزة حول المتع الجسدية المحدودة على حساب المتع العليا من النمو الفكري، والارتقاء الروحي، والمساهمة في بناء المجتمع، وهم بذلك يتنكرون لإنسانيتهم ويعيشون كالحيوانات. ويقول كولن فيما يتعلق بالوصول إلى الإنسانية الكاملة:

"إلا أن البشر بعيدون كل البعد عن الوصول إلى ذلك بسبب جسديتهم وشهوانيتهم، بل يمكن القول: إنه عندما يغفل البشر عن أنفسهم أو عن وجودهم وماهيتهم فإنهم قد يصبحون أدنى من المخلوقات الأخرى. غير أن هؤلاء البشر في الوقت نفسه -بعقولهم ومعتقداتهم وضمائرهم وأرواحهم- شهود على الأسرار المقدسة الكامنة بين مسارات الحياة. ولذلك فإنه مهما بدا البشر تافهين، فإنهم يظلون "المثال الأسمى" ويظلون مميَّزين عن غيرهم. والإسلام لا يقدِّر قيمة البشر بطريقة مَسْك العصا من المنتصف، فهو الدين الوحيد بين كل المعتقدات الذي يَعتبر البشرَ كائناتٍ راقيةً خلقت لرسالة أو لمهمة خاصة، ولذا فقد أمدها الله بإمكانات ومواهب أعلى. فالبشر في الإسلام لهم السيادة لمجرد كونهم بشرًا".

الكرامة الإنسانية

فتح الله كولن ينادي بالكرامة الإنسانية والقيمة الأخلاقية المتأصلة في إطار النظام الفلسفي الديني للإسلام، والذين يعيشون غافلين عن تلك القيمة وذلك الوعد -أو مستخِفّين بهما- يختارون أن يعيشوا حياة أدنى من الحياة الإنسانية، وتلك للأسف هي الحياة التي يختارها أكثر الناس.

ولكن من بين الجموع الغفيرة، يظهر قلة من الأفراد الاستثنائيين يرون ما هو أبعد من المتع الوقتية الزائلة ومشاغل الحياة الدنيا، وهؤلاء -رغم تنوع وصفهم لدى كونفوشيوس وأفلاطون وكولن- يصلون إلى المثالية الإنسانية، وبالتالي يمثلون القدوة الساطعة لما هو ممكن في عالم الحياة الإنسانية. وبالنسبة للمفكرين الثلاثة، ينعقد الأمل على هؤلاء الناس في تحقيق حياة إنسانية طيبة على المستوى الفردي والاجتماعي أو السياسي، لذا يرى كلٌّ من المفكرين الثلاثة -بطريقته الخاصة- أن هؤلاء الأفراد المثاليين ينبغي أن يأخذوا مكانهم كقادة في المجتمع. ■

(*) كاتبة أكاديمية في جامعة "رايس" الأمريكية / الولايات المتحدة الأمريكية. وهي مؤلفة كتاب "محاورات حضارية".

hiragate.com

قضايا فكرية

د. أسامة السيد الأزهري*

إن منابع الحيوية كامنة في باطن الإنسان؛ في قلبه، في سره، في خفيّه، في أخفاه، في أعماقه اللانهائية. وعندما تتفجر هذه المنابع تبدو سلوكًا على الجوارح والملامح.

الموازين

المشروع الإسلامي بين الحقيقة والخرافة

كثر الكلام عن المشروع الإسلامي، وأثير حوله خلال الفترة الماضية جدل ولغط وصياح وتدافع، وروِّج له بعض الناس، ورفضه بعض الناس، وبدأت التهم تُرمى هنا وهناك؛ فهذا عدوّ لله ولرسوله لأنه معارض للمشروع الإسلامي، وذاك مناصر للمشروع الإسلامي.. فأحببت أن أرجع خطوة إلى الوراء، لأسأل ما هو المشروع الإسلامي أولاً قبل البحث عن أحكامه ومتعلقاته؛ إذ لا بد من وضوح المعنى قبل الحكم عليه بأي حكم.

المشروع الإسلامي هو تقديم أجوبة عينية جزئية تفصيلية محددة على أسئلة العصر ومشكلاته في النواحي الديبلوماسية، والإدارية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفلسفية، والمعرفية.. وأن يكون ذلك منطلقًا من النموذج المعرفي المسلم المكوَّن من نصوص الشرع ومقاصده وإجماعاته وأحكامه وتشريعاته وأخلاقه وقيمه، وقواعده الأصولية والفقهية، وسننه الإلهية وآدابه وفنونه.. وذلك عن طريق توليد العلوم والمناهج والتنظيرات، التي يمكن تحويلها إلى برامج عمل ومناهج تطبيق تؤول إلى مؤسسات ونظم إدارة.

مشروع ينتج قيمًا إنسانية

أما غاية هذا المشروع الإسلامي، هو إنتاج تطبيقات

معرفية وخدمية صانعة للمؤسسات والحضارة، تسري فيها روح مقاصد الشريعة؛ من حفظ النفس والعقل، والعرض والدين والمال، ومحبة العمران والسعي في صناعته، واحترام الإنسان، وتعظيم الأصل والأساس الأخلاقي، والانفتاح على العالم وإفادته والاستفادة منه، وبروز قيمة الطفولة وقيمة المرأة، وحفظ البيئة وحقوق الأكوان (إنسانًا وحيوانًا ونباتًا وجمادًا) وسريان معنى الربانية في ذلك كله بحيث يفضي بالإنسان إلى ربه سبحانه.. وهو نمط من الحضارة وتطبيقاتها، تتسع للمسلم ولسائر الملل والنحل.. لا يشعر فيه أحد في شؤون المعاملة أنه مكره ولا مكروه ولا مضطهد.. ومن لم يدخل فيه فإنه يستظل برحمته وعدله وشفقته وإنصافه، لأن هذا المشروع منتِج للقيم وناقل لها، وهو يصدِّرها إلى الجميع.

إن أساس هذا المشروع الإسلامي وأصله ومحوره وجوهره، هو منظومة الأخلاق والمكارم الإنسانية، والقيم الرفيعة واحترام الإنسانية، والسعي في إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة، وشعاره "إنما بعثتُ متممًا لمكارم الأخلاق". فكل تطبيق أو منتج يشوش على هذا المقصد أو يفسده أو ينحرف عنه أو يفارقه، فهو باطل.

وهذا كله، من قبيل تخريج الفروع على الأصول، وهذه وظيفة المجتهد أو المجامع الفقهية. والاجتهاد يتجزأ، وأعني بذلك تخريج الفروع والعلوم الإنسانية والإدارية والاقتصادية على أصول الإسلام وينابيعه ونموذجه المعرفي، وفق مناهج الاستنباط المعتمدة في أصول الفقه وعلوم المعقول. وكيفية ذلك مثلاً بمنظومة من الإجراءات، تشتمل على مراكز أبحاث وحلقات نقاش، وَوُرَش عمل تضم الفقهاء المحققين في الفقه والأصول ومقاصد الشريعة وواقع العصر، مع جهابذة العمل الديبلوماسي خبرائه مثلاً، بحيث تفضي تلك الإجراءات إلى رؤية، وخطة ومعايير للتقييم يتم بها استخراج كافة الإشكاليات والتصرفات والتطبيقات والأسئلة الجزئية التي تعترض الديبلوماسيين في عملهم، مع فهم آفاقها ومشكلاتها ومآلاتها وأثرها على علاقة الوطن بالقوى الدولية والأعراف الديبلوماسية المحيطة بنا في العالم.. ثم يتم التداول في كل ذلك، وتخريجه على أصول أهل الإسلام، بحيث يتم إيجاد رؤية وتحليل ومقترحات، تسري من خلالها مقاصد الدين وقيمه، إلى هذا المجال عن وعي واستنباط واستخراج دقيق لما يقدمه الشرع الشريف من أجوبة.

ولا تتم الإجراءات المذكورة من حلقات النقاش، وَوُرَش العمل وغيرها، إلا في جوٍّ من الثقة المتبادلة، والصداقة الحميمة، والتقدير المتبادل، والحرص على تبادل العلوم والمعارف من كل الأطراف فيما بينهم مهما تباينت الرؤى والمفاهيم، بل إن الذي يدفع الجميع إلى ذلك، هو الحرص الكبير على بناء الوطن ومشاركة كافة الطوائف في ذلك.

مشروع متجدد يتوافق مع العصر

ثم يتم مثل ذلك في النظم السياسية، ومفهوم الدولة، وشبكة علاقاتها بالأفراد وبمؤسسات المجتمع، ومعرفة وظائف الدولة المنوطة بها، التقاطعات بينها وبين الحريات المختلفة مع استيعاب للنظم السياسية المعاصرة وخلفياتها الفلسفية عند توماس هوبز وجون لوك، وهيجل وغيرهم.. ثم الرجوع بكل ذلك إلى معادن الشريعة وينابيعها، مع دراسةٍ وتطويرٍ وتمديدٍ وتوليدٍ لكتابات إمام الحرمين، والماوردي، وابن خلدون وأمثالهم، حتى تتخرج هذه الفروع على أصول الشرع الشريف وتحقق مقاصده، فيتم بذلك صناعة مشروع تفصيلي جزئي عيني، يشتمل على أجوبة جزئية، بالقدر الذي يكفي لبناء العمل والتطبيقات عليها على إشكالات العصر والمتعلقة بذلك المجال. ثم إن النقد العملي والتطبيق الواقعي لهذه النظريات، سوف يسهم في توسيع آفاقها، وحَبْكِها، وتدارك الجزئيات التي لم يقع الالتفات إليها، ثم يبدأ طور آخر من الدراسة في كيفية اتساق هذه المواد والقوانين والإجراءات مع النظم السياسية والقائمة في العالم من حولنا.

ويتم مثل ذلك في كافة النواحي الفلسفية، والمعرفية، والعلمية التجريبية، والاقتصادية والإدارية، والخدمية، بحيث عندما يتكامل ذلك، فإن الناتج النهائي هو الذي يمكن أن يسمى مشروعًا إسلاميًّا.

ولا بأس بأن تتعدد المشاريع الإسلامية، إما لأن

hiragate.com

بعض الأصول النظرية التي بنيت عليها ظنِّية، أو أن مناهج الاستنباط ظنية، أو لأن كثيرًا منها من قبيل الفروع والأمور العلمية التطبيقية، التي يمكن أن تتعدد في ذاتها، فينتج من ذلك ثراء وبدائل وخيارات واسعة، وعدد من الأطروحات والحلول للقضية الواحدة، يرى الناس من خلالها اتساع الشرع والشريف لاحتياجات المكلفين وما أودعه الله تعالى فيه من سعة.

ثم إن هذا المشروع الإسلامي هو اجتهاد المسلمين في تنزيل الشرع الشريف على واقع زماننا، ويقوم المسلمون فيه بواجب زمانهم؛ فإن من وظيفة الشرع الشريف أن يقدم الحلول للحوادث الممكنة شرعًا، مع محاولة إيجاد البديل لما لا يمكن شرعًا، أو مع تقويم الجهة التي انحرفت في الواقع عن الشرع الشريف.. ولا بد في ذلك كله من الرصد والتتبع والملاحقة لما يطرأ من تطور وتغير في المفاهيم والفلسفات، حتى لا يتجمد المشروع عند جزئية بعينها، بل يظل قابلاً لتوليد أجوبة جديدة بمقدار كل تغير طارئ على المحالِّ والمجالات التي يتم بها تسيير حركة الحياة.. لا يمكن صناعة ذلك كله، إلا على أرضية بحثية ومعرفية دقيقة من العلوم الإنسانية، حتى تنهض تلك الأطروحات على أساس منير ومستبصر بالخصائص النفسية، والتفاعلات الاجتماعية للإنسان، وهذه الأرضية المعرفية لم نقم بصناعتها إلى الآن.

منتَجٌ صنعتْه حضارة أخرى

الأسلمة القائمة على جلب منتج ديبلوماسي أو إداري صنعته حضارة أخرى وقد استلهمت فيه أصولاً فلسفية مختلفة عنا، ثم نتكلف نحن تركيبة على خصائص نفسية واجتماعية مغايرة، ثم نقوم بتجميله ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ثم ندَّعي أنه قد تمت أسلمته، وننادي بجعله مشروعًا إسلاميًّا؛ فيكون له شكل خارجي إسلامي، بينما تعمل كل مكوناته وجزئياته وأصوله المعرفية ومنطلقاته النفسية وفق طرح فلسفي مغاير لهويتنا وحضارتنا.. فإن كل ذلك يمثل جناية كبرى على الإسلام وعلومه، ويؤدي إلى الفشل أو إلى مزيد من الانفصام وعدم الاتساق بين المفهوم القيمي الكامن

إن الشرع الشريف يشبه منجمًا حافلاً بالمعادن النفيسة والجواهر النادرة، لكن سريان هذا الجواهر إلى واقع الناس يحتاج إلى صناعة ثقيلة وإلى علوم ومهارات متعددة التي هي الأجوبة النهائية على مشكلات العصر.

في النفس وبين التطبيق المعيشي، يؤدي بصاحبه إلى صراع نفسي، أو انفصام في الشخصية، أو حَوَلٍ معرفي ونفسي. وهنا لا بد من الإشارة إلى الفارق الدقيق بين مسيرة الأديان ومسيرة المذاهب الوضعية؛ إن الأديان قبل أن تستقر في الدساتير والقوانين، فإنها تكتب في القلوب والضمائر، وينشأ بها سلوك إنساني أخلاقي.

لا يمكن لنا أن نصنع أي شيء من ذلك إلا بتنشيط البحث العلمي، وتشغيل الطاقات العلمية والبحثية الهائلة المبعثرة، وتحريك العقول العبقرية الخاملة التي أصابها اليأس والإحباط والاختناق من طول الإهمال وشدة الفقر والتعقيد في الوسط العلمي، مما آل إلى وجود جو خانق للإبداع والأمل، طاردٍ للخبرات العلمية؛ لأن العمل الموصوف هنا، مشروع قومي تنخرط فيه أجيال من الباحثين بعد أن يتم توفير كل الأدوات والإمكانيات العلمية والبحثية لهم.. ولا بد لكل هذا، من تمويل ضخم جدًّا، لا يمكن وجوده في ظل اقتصاد منهار، فصار واجب الوقت -أولاً وقبل كل شيء- هو توجيه كافة الفصائل والتيارات والقوى، إلى إنعاش الاقتصاد، وتنشيط الوقفيات العلمية للإنفاق على البحث العلمي.. ومن هنا يبرز دور مؤسسات المجتمع المدني في هذا الحراك الحضاري.

ترويجٌ يفضي إلى التشكك

والدعوة والإعلان والترويج لما يسمى بالمشروع الإسلامي -قبل تصنيعه واستنباطه من ينابيعه- أمر في غاية الخطورة؛ لأنه يدعو الناس إلى شيء، ثم عند إقبالهم وقبولهم يفاجؤون بأنه لا إجابة لمشكلات عصرهم، أو يفاجؤون بإجابات مرتجلة هزيلة، أو بجهل مطبق بالواقع، مما يفضي بالناس إلى التكذيب

hiragate.com

والتشكك في وجود أي طرح إسلامي صالح لتسيير حركة المجتمع وحياة البشر، ويجعل الناس غير قابلين لتصديق أي طرح إسلامي آخر بعد ذلك. إن الدعاية لشيء قبل تصنيعه، يمثل خطرًا كبيرًا جدًّا.

كل هذا، في ظل وجود تجارب في مناطق مختلفة، آلت في معظمها إلى الخراب والدمار والتفكك والتراجع لمجتمعاتها وأوطانها، وجعلت كثيرًا من المفكرين والباحثين ينفرون من أيّ أطروحة تتكلم عن مشروع إسلامي؛ لأن كل التجارب السابقة كانت نتائجها مريرة.. والسبب؛ في عدم قيامنا حتى الآن بصناعة المنتج الفلسفي والفكري والتنظيري والتطبيقي، للأصول التي يمكن أن تنهض على أساسها أمة، مع اعتمادنا على شدة حضور أصولها في نصوص هذا الدين وأطروحاته، فحصل عندنا انتقال ذهني من حضور أصولها في ينابيع الدين ومعادنه العليا، إلى مظنة أن مجرد أصولها يكفي في ترويجنا لها، وغفلنا عما يستوجبه ذلك من قيامنا كأمة، بالتصنيع والتنزيل والتخريج والتشييد لكافة إشكاليات العصر وفق تلك الأصول.

غياب الأخلاق والقيم

يضاف إلى ما سبق -من العجز الذي وقعت فيه الأمة منذ زمن عن تنزيل معالم الدين بما يكفل استخراج أجوبة عن كافة إشكاليات العصر- أمر آخر شديد الأهمية، ألا وهو الغياب التام لأخلاق هذا الدين وقيمه، وبروز شراسة النفوس المريضة التي تلوح لبقية المجتمع بالتنكيل والويل والثبور في الوقت الذي تدعي فيه تقديم المشروع الإسلامي، مع العجز عن صناعة جزئياته، مما صنع عند المجتمع صورة شديدة السلبية، آلت عند بعض الناس إلى تكذيب الله ورسوله، ودفعت البعض إلى الإلحاد.

إن الشرع الشريف يشبه منجمًا حافلاً بالمعادن النفيسة والجواهر النادرة، لكن سريان هذا الجواهر إلى واقع الناس يحتاج إلى صناعة ثقيلة وإلى علوم ومهارات متعددة؛ فيحتاج إلى الحفر والتنقيب، وإلى عمال المناجم، وإلى النقل وإلى التعدين والصهر، والطرق والسحب، انتهاء بتصنيع الأدوات الدقيقة، والآلات الصغيرة التي هي الأجوبة النهائية على مشكلات العصر. فنحن في حاجة إلى إعادة تشغيل التروس والماكينات والمصانع التي تأخذ هذه المواد الخام -المتمثلة في نصوص الوحيين- وتقوم بتصنيعها، لإخراج المنتج الذي يلبي احتياجات العصر.

ومشكلتنا هي أن التروس والآلات التي تصنع المنتج، قد امتلأت بالصدأ ولم تعمل منذ زمن، والذي يشير إلى ذلك كله هو قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾(النساء:٨٣)؛ فالاستنباط صناعة ثقيلة قائمة على التوليد والتصنيع والتخريج والإلحاق، حتى تتولد وتتأسس وتنشأ الإجابة عن أسئلة العصر ومشكلاته، بما يحقق مقاصد الشرع الشريف، ويحقق رخاء الإنسان وإسعاده في الدارين، ويسترسل به نور العلم على المجالات المختلفة، والعلم الذي خوطب به العباد رحمة وراحة.

التجارب السابقة اجتهدت في القيام بواجب زمانها، ونحن نحتاج اليوم إلى الوقوف على مناهجهم دون مسائلهم فقط، لأن كثيرًا من تلك المسائل مرتبط بظروف عصرهم فلا تقدم أجوبة لإشكالات عصرنا هذا، لكنها مشتملة على مناهج صالحة للتعامل مع الوحي المجرد المتعالي على الزمان. ثم لا بد أيضًا من الاستفادة من تجارب العلماء الأجلاء الذين سلكوا هذا المسلك، ووقفوا على هذا البرزخ الفاصل، والذين اجتهدوا قدر وسعهم في القيام بواجب زمانهم.

هذا العمل الضخم الواسع المترامي الأطراف، يشبه مراحل الصعود في تاريخ الأمم كلها، حيث تكون فترة طويلة ممتدة، ومرهقة وشاقة، تعكف فيها كل أمة أو حضارة على استرجاع هويتها وأصولها، وتعكف على الاختيار والانتقاء مما هو محيط بنا من التراث العالمي، وذلك من خلال عيونها المتمثلة في الخبراء والعلماء والكفاءات الكبيرة النادرة، في كافة المعارف والعلوم مع براعة في تركيب نتاجهم، بحيث يتأيد بعضه ببعض، ويفضي إلى صناعة رؤية واختيار لهذه الأمة، صالح للتفاعل مع نظم العالم من حولنا. ■

(*) مستشار رئيس الجمهورية للشؤون الدينية / مصر.

hiragate.com

د. خالد طحطح*

دورة الحضارة عند ابن خلدون

اعتبر ابن خلدون التاريخ فنًّا من الفنون التي تتداولها الأمم، يقول في هذا السياق: "إن فن التاريخ، من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليها الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال"، ويواصل القول معلنًا أن: "فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا".

والتاريخ عند ابن خلدون، في ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها

إن حركيــة التاريخ عند ابــن خلدون هي حركة انتقال مســتمرة من البداوة إلى الحضارة على شكل دورة، وهذا الانتقال يتم عبر الدولة على خمس مراحــل، ولكنها مراحــل لا تعدو ثلاثة أجيال؛ جيل البداوة وجيل الحضارة، وجيل الترف الذي تسقط في عهده الدولة.

دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، لذلك فهو أصيل في الحكمة عريق.

لقد أعطى ابن خلدون لحوادث الدول عللاً وأسبابًا، وسلك في مقدمته مسلكًا غريبًا: فقد شرح فيه "من أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية، وما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها".

فابن خلدون ساقته مشاهداته وتأملاته العميقة لشؤون الاجتماع الإنساني، إلى القول بأن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون، وأنها محكومة بقوانين طبيعية تشبه القوانين التي تحكم ظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء، ولاحظ أن كثيرًا من المؤرخين لا يتجاوزون في كتابتهم التاريخية النقل المباشر عن سابقيهم وكأن التاريخ حكاية عن السلف، مع أن التاريخ في جوهره فلسفة عميقة لقوانين الاجتماع.. وبهذا النهج عارض من سبقه من المؤرخين الذين جمعوا الروايات دون نظام منهجي خاص يفرق بين الحقيقي والأسطوري من الأخبار.

المنهج التاريخي لابن خلدون

يعتبر كتاب "المقدمة" من أوائل الكتب التي تعرَّضت لذكر القواعد العامة لفهم التاريخ، فهو بحث تاريخي نقدي، يعارض فيه مؤلفه ابن خلدون مَن سبقه من المؤرخين الذين اكتفوا بجمع الروايات دون تمحيصها لتمييز الأسطوري عن الحقيقي من الأخبار. فكانت الأحداث تروى على علاتها دون تدقيق، فالأغلبية الساحقة من المؤرخين العرب السابقين، استوعبوا بلا نقد مادة التاريخ المنقولة إليهم بطريقة الإتباع، فهم حسب ابن خلدون استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، ونقلوها كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع ولم يراعوها، فالتحقيق قليل، إذ إن أغلب المؤرخين يحصرون علمهم في حشد الروايات وتوثيق السند، دون القيام بنقد الأخبار على أساس طبائع العمران.

فلئن كان فضل المؤرخين القدامى يتجلى في أمانة النقل وغزارة المادة التي صنعوا منها كتبهم، فإن ابن خلدون -وعلى النقيض منهم- أضاف فضلاً آخر في ناحيتين اثنتين، الأولى في تفريقه بين التاريخ وفلسفته، والثانية في تساؤله الدؤوب عن العلل والأسباب للحوادث، ومحاولة الوصول إلى إجابات منطقية مستمدة من معرفته بطبائع العمران. يقول ابن خلدون: "لقد أنشأت في التاريخ كتابًا، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا، وفصلت فيه الأخبار والاعتبار بابًا بابًا، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسبابًا، وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكًا غريبًا، واخترعته من بين المناحي مذهبًا عجيبًا، وطريقة مبتدعة وأسلوبًا، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية وما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها، حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك".

كتب ابن خلدون مقدمته من أجل وضع معايير بيد المؤرخ، يعتمدها في معالجة الوقائع التاريخية، وقد أجرى تحقيقات نقدية عمت تراث أسلافه من المؤرخين كابن هشام، والواقدي، والبلاذري، وابن عبد الحكم والطبري، والمسعودي وابن الأثير.. فاستبعد بعضًا من رواياتهم على اعتبار أنها محض اختلاق لتعارضها مع طبائع الأشياء وقوانين العمران، وشكك في صحة كثير منها. وقد بنى هذه الأحكام على ما قرره في مقدمته بصدد الاجتماع الإنساني ومناهج البحث العلمي وقواعد التحري التاريخي، فالفيصل الذي يميز الوقائع التاريخية الحقيقية من الدعاوى الكاذبة، هو معرفة مدى مطابقتها لأحوال العمران، فاستنبط بذلك

hiragate.com

قانون المطابقة للنواميس الاجتماعية.

قانون المطابقة للنواميس الاجتماعية

يعتبر ابن خلدون أول من استنبط قانون المطابقة للنواميس الاجتماعية، فوضع بذلك علم العمران، وهو علم مستقل بذاته، وكان من أهم أسباب إنشاء هذا العلم الجديد حرصه على تخليص الكتب التاريخية من الأساطير، وإصلاح وتقويم ما نقل سلف المؤرخين من أوهام وأخطاء. فقد كان ابن خلدون واعيًا كل الوعي بأنه كان مجددًا في ما تناوله من قضايا بكتابه المشهور باسم "المقدمة"، فقد أعطى للحوادث عللاً، فكما أن للطبيعة قوانين معينة تسير حوادثها وفقها، فكذلك العمران البشري أو الاجتماع الإنساني له عوارضه الذاتية الخاصة به، ويقصد ابن خلدون بـ"العوارض الذاتية"، ما نقصده نحن اليوم من كلمة "القوانين".

إن تطبيق ابن خلدون لقانون المطابقة جرَّه إلى الكشف عن القوانين الاجتماعية، وذلك لكي يجعل منها بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه، معيارًا صحيحًا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق و الصواب فيما ينقلونه.. فإذا كان أهل الحديث -مثلاً- يركزون جهودهم على النقد الذاتي باتباع منهج الجرح والتعديل، فقد اكتشف ابن خلدون أهمية النقد الباطني، فإذا كانت الشريعة جملة إنشاء، فإن التاريخ محض خبر يحتاج إلى منهجية خاصة به، وبسبب هذا رفض رفضًا قاطعًا كل الروايات غير الموافقة لأحوال العمران.

وقد أعطى نماذج من تطبيقه لقانون العمران الذي ابتكره، وقد أورد فيه أمثلة لأخبار مستحيلة الحدوث وردت في كتب المؤرخين السابقين.. فهو يرى أن ما أورده المسعودي وغيره من أن جيوش النبي موسى عليه السلام قد بلغت ستة آلاف مقاتل، لا يثبت أمام النقد الباطني لأسباب جغرافية وإستراتيجية، كما اعتبر دخول "افريقش" المغرب خرافة، وغزوات التبابعة لبلاد المغرب من الأخبار الواهية، يفندها بأدلة عقلية وجغرافية وسياسية؛ يقول ابن خلدون في هذا الصدد: "ومن الأخبار الواهية للمؤرخين، ما ينقلونه كافة من أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا

ابن خلدون ساقته مشاهداته وتأملاته العميقة لشؤون الاجتماع الإنساني، إلى القول بأن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون، وأنها محكومة بقوانين طبيعية تشبه القوانين التي تحكم ظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء.

يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب.. وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط، وهي أشبه بحديث القصص الموضوعة، وذلك أن ملوك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب، وقرارهم وكراسيهم بصنعاء باليمن، وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها، بحر الهند من الجنوب، وبحر فارس الهابط من البصرة من المشرق، وبحر السويس الهابط منه.. من أعمال مصر من جهة المغرب كما تراه في مصور الجغرافيا".

ومن الأخبار المستحيلة عند ابن خلدون، ما نقله المسعودي أيضًا في تمثال "الزرزور" الذي تجتمع إليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم.. وأمثال ذلك كثير، وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران، وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار، وتمييز صدقها من كذبها. ويضيف في هذا السياق أمثلة كثيرة للتدليل على أهمية استحضار النواميس والعلل المنطقية في التعامل مع الروايات التاريخية.

التعاقب الدوري في نظرية ابن خلدون

يعد ابن خلدون مؤسس نظرية التعاقب الدوري للدول في تاريخ الفكر الإنساني، وقد توصل إلى فكرة التعاقب في الحضارة، وقارن في دائرية التغيير بين الإنسان والمجتمع، فأكد أن للمجتمع في عُمر يمر به مقيسًا ذلك على عمر الشخص الذي يولد ثم يكتمل نموه، ثم يهرم فيموت.. وعلى هذا الأساس جعل للدولة ثلاثة مراحل تمر منها: بداوة ثم ازدهار فتدهور.

إن الدولة كانت المحور الأساسي الذي تدور حوله أبحاث ابن خلدون ونظرياته، إذ قاسها قياسًا تامًّا على

hiragate.com

عمر الفرد ومراحل تطوره، وجعل لها أعمارًا كما للأشخاص، وهي النظرية التي تمثل جوهر فكره في الدورة العضوية للدولة؛ يقول ابن خلدون في "المقدمة": "الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص". ويرى "أنها لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص من العمر الوسط فيكون أربعين، الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته"، مستدلاً بقول الله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

إن حركية التاريخ عند ابن خلدون هي حركة انتقال مستمرة من البداوة إلى الحضارة على شكل دورة، وهذا الانتقال يتم عبر الدولة على خمس مراحل، في المرحلة الأولى تنشأ الدولة على أنقاض دولة سابقة لها، وفي المرحلة الثانية ينفرد صاحب السلطان بالحكم بعد أن يكون قد تخلَّص ممن اشتركوا معه في تأسيس الدولة، وفي المرحلة الثالثة تزدهر الدولة وتسود الدعة والسكينة، وفي المرحلة الرابعة تتحول الراحة والطمأنينة إلى قناعة وسكون ومسالمة، وتأتي المرحلة الخامسة تتمة للمرحلة السابقة ونتيجة لها حيث تفقد الدولة هيبتها فتتحلل وتزول. وتتميز هذه الأطوار الخمسة بما يلي:

الطور الأول: طور الظفر والاستيلاء على الحكم.

الطور الثاني: طور الاستبداد والبطش.

الطور الثالث: طور الفراغ والدعة والتمتع بملذات الدنيا، مما تنزع إليه طباع البشر من تخليد الأثر وتحصيل المال والإسراف في الشهوات.

الطور الرابع: طور القنوع والسكون، ويكون صاحب الدولة في هذا مقتنعًا بما حقق سابقوه وما أنجزوه من أعمال، فلا يضيف شيئًا.

الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير، ويكون صاحب الدولة مخرِّبًا لما بناه سلفه، وهادمًا لما كانوا يبنون.. وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم، فتتعرض للانقراض والزوال على يد دولة جديدة.

إذا كانت الدولة تمر بأطوار خمسة حسب ابن خلدون، فإنها لا تعدو ثلاثة أجيال، جيل البداوة وجيل الحضارة، وجيل الترف الذي تسقط في عهده الدولة.

يتميز جيل البداوة بخشونة العيش والبسالة والتماسك الاجتماعي والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم، والبدو من خصالهم الاقتصار على الضروري من العيش في أحوالهم، لكنهم سرعان ما يتطورون؛ إذ يتحول حالهم من البداوة إلى الحضارة والعمران بفعل المُلك مع الجيل الثاني.. والحضارة إنما هي تفنن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة، وبناء القصور والاستمتاع بأحوال الدنيا، وإيثار الراحة على المتاعب، فيتحول الاتجاه نحو الترف الذي هو غاية الحضارة، وهو يزيد الدولة في بدايتها قوة، إلا أنه العلة الأساسية لبداية الانحلال، وهو المؤذن بخراب العمران.

فالحضارة تفسد طباع البداوة، إذ يتجه أصحاب الدولة إلى الإسراف في التنعم، ويزهدون في العمل، ويخلدون إلى الراحة والشراب، ويكثرون من النساء ومعاقرة الخمر، فتزول هيبة السلطة من النفوس، وتكثر القلاقل والفتن.. فيفقدون بذلك حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته فتفسد أخلاقهم وطباعهم، فينقلب التناصر بينهم إلى تنافر، والتعاضد إلى تخاذل، فيظهر الظلم إلى جانب الترف، وهما مظهران من مظاهر خراب العمران وسقوط الدولة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

خلاصة

الدولة عند ابن خلدون طور طبيعي، فالتمدن غاية البداوة، ولكن البدو عندما يتطورون في أساليب العيش، ويتقدمون في الصنائع فإنهم ينتهون إلى الفناء، لأن الحضارة تحمل في طياتها بذور نهايتها، فتهرم الدولة وتسقط. والهرم عند ابن خلدون مسألة طبيعية في الدولة إذ يقول: "وهو من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواءها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي، والأمور الطبيعية لا تتبدل". وعليه فزمام الأمور لا بد أن تنفلت، وتبدأ الدولة المنهارة في السقوط، فتفسح المجال لجماعة أخرى من البدو تسعى إلى الملك والريادة فتحل محلهم، وتحذو حذوهم، تمر بنفس الأطوار والمراحل. ■

(*) كاتب وأكاديمي مغربي.

hiragate.com

عماد الشرقاوي*

العودة

صديقي: الدرب طويل طويل
والأمل الباقي للعودة
أمل مستحيل
فالشمس أدارت للكون الظهر
وأشارت لليل أن ابقَ
والعقل المتلقي المتوقد ما عاد
والحلم المتبقي قد ضاع
والوقت الباقي لن يكفي للعودة
فالدرب طويل، طويل، طويل..
لن نحيا ما دمنا نحيا وسط الأموات
وسط الكلمات المرصوصة المعهودة
بين الماضي الفاني، المولي
لم يبق منه إلا رفات
لن نحيا ما دمنا نحيا زمن الديسكو
والشعر الهائج والزي اللامع والعربات
لن نصبح اسمًا مرموقًا
ما دمنا نحيا عصر الموضات
صديقي: اقتلني أو اقتل نفسك
ما دمنا لم نوقف هذا الإعصار
ما دمنا نحيا وسط العار
يسري فينا كالدم، كالشيطان
أو بعدو في الطرقات
بعضا من أخبار
فتموت الكلمة، النغمة
وتقتل فينا الأشعار
إن كنت صديقي فتعال
نجرب كيف نموت ثمن الكلمة،
ثمن النغمة، ثمن الأشعار،
دون العار..
تعالى نجرب كيف نكون
ضد الريح ألف جدار.. ولا ننهار
كي نصبح رمزًا أو علمًا أو درع مزار
كي نشهد قرص الشمس كيف استدار
لنفتح باب الليل ليندفع النهار
كي نرسل للعقل الراقد بعض الأنوار
فالوقت سيكفي للعودة
والدرب قصير قصير
إن حطمنا كل الأسوار

(*) شاعر مصري.

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلًا ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار النيل
للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
إسماعيل قايار

الإخراج الفني
أحمد شحاتة
ياووز يالمز

منسق الاشتراكات
علاء الكوابري
+201000780841
+201023201002

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-64

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد – الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

NIGERIA
.Nusret Educational And Cultural Co. Ltd
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
nusretnigeria@gmail.com

IRAQ
Kani Irfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000

USA
Tughra Books
Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA 345
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

EUROPE
World Media Group AG
Sprendlinger Landstrabe 107-109
63069 Offenbach a. Main / Germany
Phone: 069 / 300 34 130
Fax: 069 / 300 34 105
dergiler@wmgag.eu

كيف نفهم **روح القرآن؟**

كيف نحسن تنزيل **معانيه الخالدة** إلى حياتنا المعاصرة؟

مدخل إلى **عالم القرآن الذهبي..**

كتاب جديد

للأستاذ فتح الله كولن

مركز التوزيع: دار النيل للنشر | info@daralnile.com | 00201023201002

مركز البيع الإلكتروني: www.neelwafurat.com | www.souq.com

مركز البيع المجلد العربي: 01275470090 | **دار أصول الدين:** 01115534566

جوامع الكلم: 01150726663 | **دار السلام للنشر:** 0222873246 | @nilepublishing | @daralnilemasr

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

لحن الربيع

افتح يديك وناجه دوما،
توجه إليه، أقبل بحرقة،
توسل بأنَّة، تضرَّع بدمعة،
هيا توجه، بروحكْ بقلبكْ..
بذاك أُخيّ ستحيا المشاعر،
ويشدو الزمان بلحن الربيع.

***

ISSN 2357-0229
64
9 772357 022004
www.hiragate.com